

الشخصية الإسلامية

دراسة قرآنية

تأليف

دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ
أستاذ الدراسات القرآنية بدار الحديث وكلية الشريعة
جامعة القرويين : المغرب

دار العلم للملايين
بيروت

دار العلم للملايين

ص . ب : ١٠٨٥

تلفون : ٣٠٤٤٤٥ ــ ٢٢٤٥٠٢ ــ ٢٩١٠٢٧

بيروت ــ لبنان

الطبعة الرابعة

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦

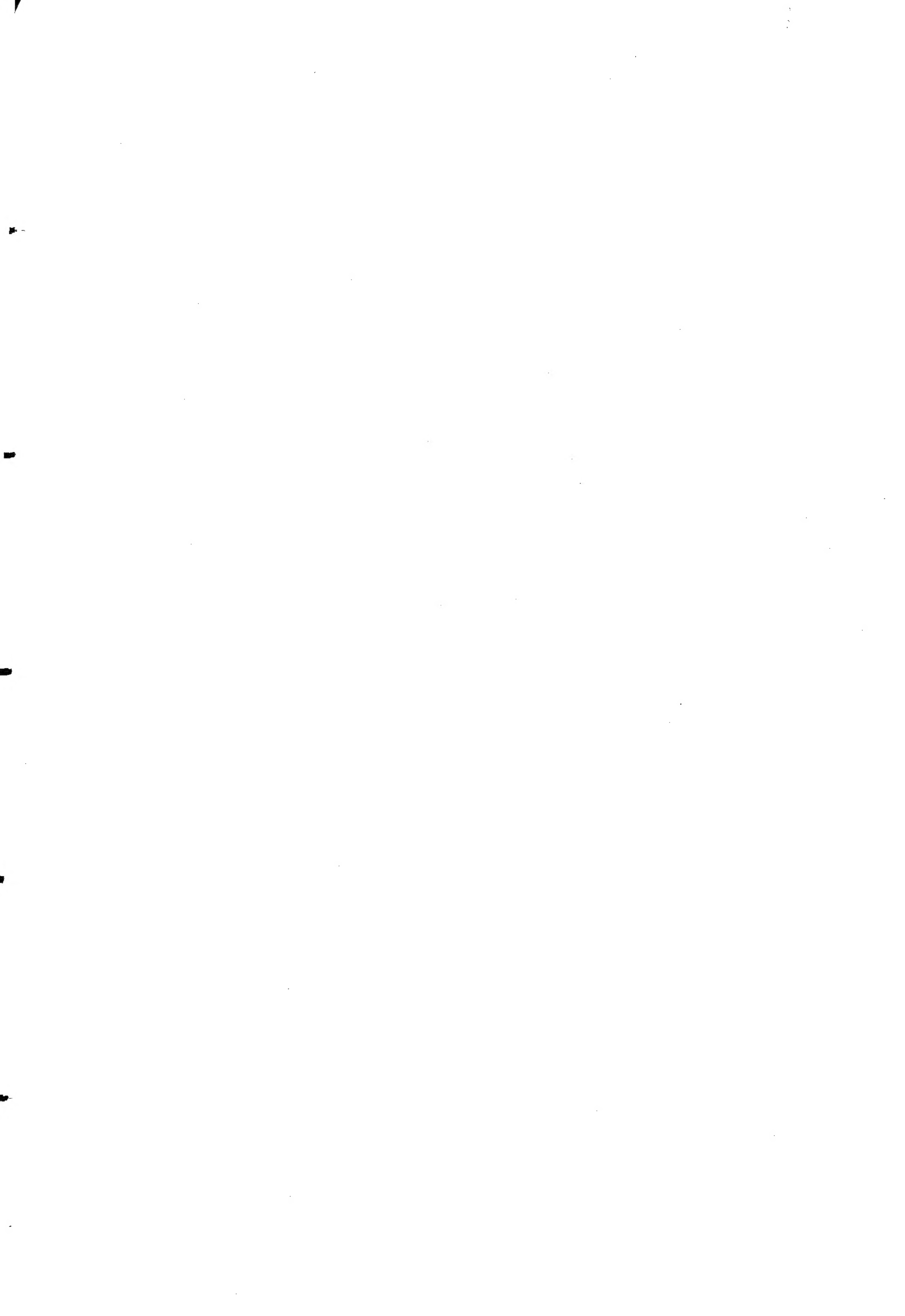
الشخصية الإسلامية

دراسة قرآنية

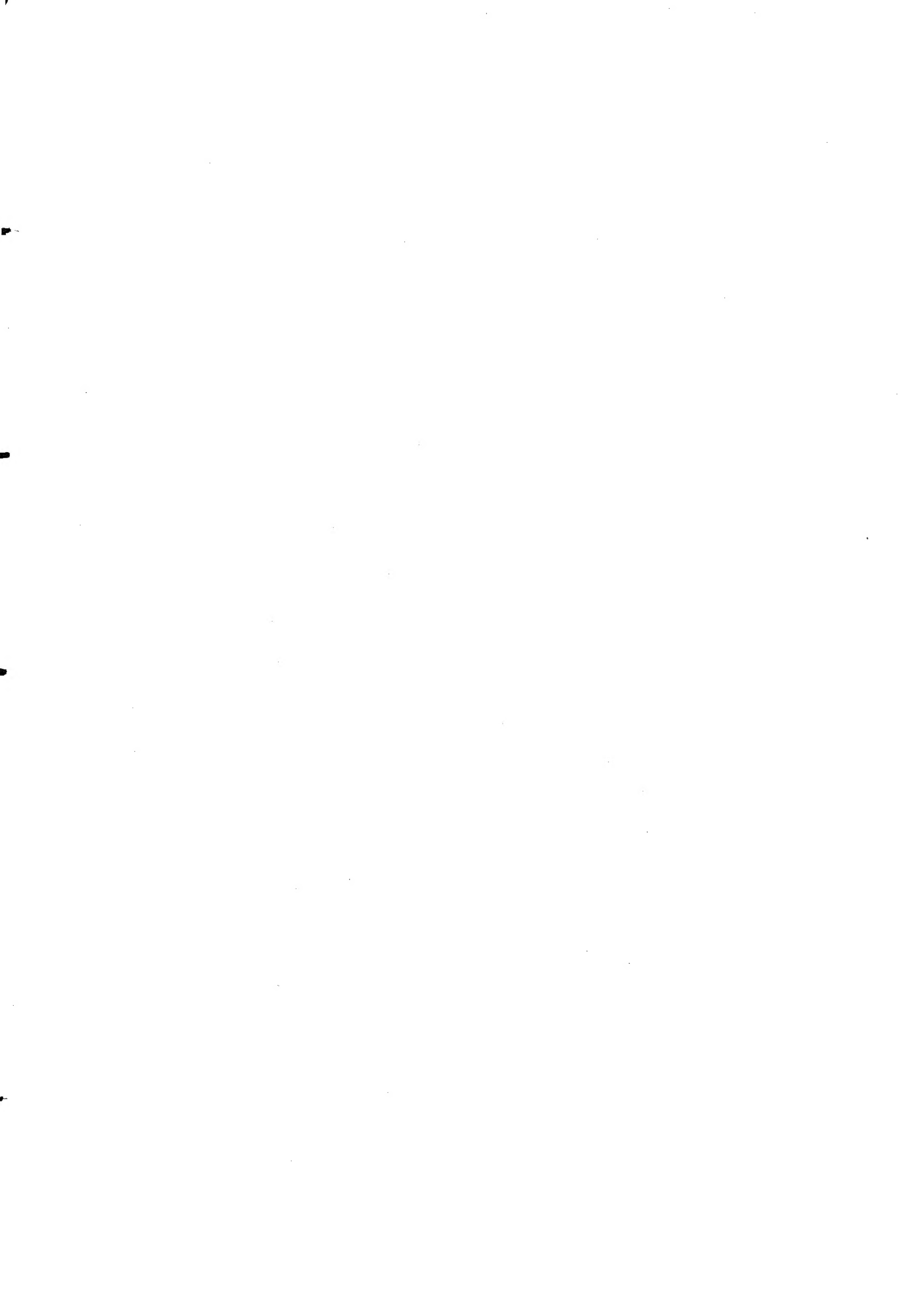
بسم الله الرحمن الرحيم

(آمَنَ الرسولُ بما أنزل إليه من رَبّه والمؤمنون ، كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتِه وكتُبِه ورُسُلِه لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ من رسُلِه ، وقالوا سمِعْنا وأطعْنا غُفرانَك ربَّنا وإليك المصيرُ * لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَها لها ما كسبَتْ وعليها ما اكتسبتْ ، ربَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أخطأنا ، ربَّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً كما حَمَلْتَه على الذين مِنْ قبلِنا ، ربَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به ، واعفُ عنّا واغفرْ لنا وارحمْنا ، أنت مولانا فانصرْنا على القومِ الكافرين) .

صدق الله العظيم .



دليل



من إيماني بقيمـــة الإنسان في موازين القوى ، أنظر في الشخصية الإسلامية فأراها فينا أنماطاً شتّى متفاوتة .

ونحن أبناء أمة واحدة ، ومع التسليم بأن كل إنسان منـــا عالَـم وحده ، فالذي لا ريب فيه هو أن تفردَ شخصيته لا ينبغي أن يطمس ملامحَ شخصيةٍ عامة تَـنميه إلى قومـِه وأمتـِه .



موضوع الشخصية الإسلامية رحب المجال ، يمكن أن يتوارد عليه أصحاب الدراسات الفلسفية والتاريخية والاجتماعية ، وخبراء النظريات والنظم المذهبية ..

وذلك كله مما لا يشغلني فيما أقدم هنا من ملامح الشخصية الإسلامية ملتمَسةً من هَدْي القرآن والسنة .

وفي ضوئها يمكن أن نفهم ما لحق بالشخصية الإسلامية من عوارض طارئة أو شوائب مُشوِّهة، تُفسر ما امتُحِنَتْ به الأمةُ من نكبة فادحة رهيبة، تعصى على التفسير والفهم بمنطق الأسباب العسكرية من عدد وعُدة ، والعوامل المادية من ظروف الصراع وواقع الجبهة .

في يقيني أن الإنسان كان وسيظل أبداً ، العامل الأول في صراع البقاء وسباق التقدم . فالأمة لا تحمي وجودها ولا تحقق تقدمها إلا بمقدار ما تملك من رصيد ذخيرتها البشرية قيمة ونوعاً . وإن بدا في ظاهر الأمر أن صراع البقاء لا يعرف غير الأسلحة الحربية ، وأن سباق التقدم محكوم بأسباب القوى المادية والتفوق التكنولوجي ..

لا أغض من خطر هذا كله وقيمته ، ولكني أعلم أن الإنسان هو الذي يُبدع الحضارة ويكتشف أسرار الطبيعة وخواص العناصر ، ويصمم الآلات ويصنع الأجهزة . ثم إنه بغير الإنسان ، تتعطل الأسلحة نووية وغير نووية ، لأنه الذي يعطي السلاح قوته وفاعليته . وبغير الإنسان ، لا تعدو الأجهزة العصرية أن تكون آلات صماء ، لأنه وحده الذي يديرها ، وهو الذي يوجه

العقول الإلكترونية ويتحكم في الكهرباء والأثير والذرّة ، ويغزو الفضاء ويرتاد الأجرام العليا .

وفي عالم اليوم بلاد يتيح لها ثراؤها المالي أن تتزود بأحدث الأسلحة ، وتظل حيث هي مهددة بالضياع لا تملك إلا أن تنتظر حكم الأقوياء عليها ،

وفي دنيانا أقطار تستطيع بثروتها المالية أن تستورد أحدث ما تنتجه مصانع العصر من أجهزة ، وتظل حيث هي في موضعها لا تتقدم ، ويعييها أن تبدع من الحضارة ما ينقلها خطوة واحدة من عصر الناقة الذي تعيشه وراء الزمن ، وإن استبدلت بمربط الناقة أفخم مطار ..

ولم يعوزنا السلاح يوم سادس يونيو « حزيران » المشئوم . وإنما أعوزنا أن يُمكّن جيشُنا من خوض معركته التي قُضي عليه ألا يخوضها ، بإيقاف القتال من قبل أن يبدأ . فتعطل السلاح واستُدرج الجيش إلى مقبرة سينا في رحلة موتٍ لم تستغرق بضع ساعات !

وبالإنسان خاضت شعوب الدنيا معارك التحرير الباسلة من كوبا إلى الجزائر وفييتنام ...

ومن قبلها شهد التاريخ انتصار الإنسان في جولات معاركنا ضد الصليبيين والتتار ، وغلبت القلة المؤمنة من المهاجرين والأنصار جبروت الوثنية العاتية ، وقهرت في سنوات معدودات جيوش الأكاسرة والأباطرة والقياصرة ..

* * *

من هذا الإيمان الراسخ بقيمة الإنسان في موازين القوى ، أخشى أن نكون في غشية الدُّوار من صدمة الهزيمة ، قد تاهت منا عبرتها وفاتنا درسُها .

وأطيل التفكير فيما تتعرض له شعوب العالم الإسلامي الإفريقي من تآكل وتصدع ، وما تُمتحن به من مذابح ومجازر وهزائم . ويصك مسمعي ما يتردد

في الأفق من أصوات الشك في صلاحية إنسان هذه الأمة للبقاء ، بحكم جمود شخصيته ورجعية تفكيره ، وتخلف عقليته الغيبية المعطِّلة للاسباب .

وتحت الضغط الباهظ للهزيمة ، يهتز إيمان الشباب بالفكر الديني فما عادوا يحتملون في عصر الوصول إلى القمر والمريخ ، أن تخايلهم ألاعيب السحرة الذين يقدمون لهم من نصوص الدين ، كل علوم الدنيا ، ما اكتُشِف منها « وما لم يكتشف بعدُ ! » وكلَّ المحجوب من غيب الآخرة .

ولا عادوا يفهمون في زمن الإلكترون ، منطق الممارسة للدين طقوساً آلية صماء مجردة من حكمتها ومغزاها .

وتضنيهم الحيرة والشك ، فيسأل سائل منهم [1] :

« هل يحق لي أن أستمر في قبول هذه القناعات الموروثة، عندما لا تكون منسجمة مع القناعات التي توصلتُ إليها ، دون أن أخون مبدأ الأمانة الفكرية ، ودون أن أضحّي بوحدة وتماسك أفكاري بعضها مع بعض ؟ ...

« كيف يكون موقف الإنسان الذي تعرض للثقافة العلمية وتأثر بها تأثراً جذرياً ، من المعتقدات الدينية التقليدية ، والمؤسسات التي تتجسد فيها ؟ ...

« كيف يكون موقف الإنسان الذي نشأ نشأة دينية وتقبلها جملةً وتفصيلاً ، من النظرة الطبيعية للحياة والكون والإنسان ؟ من العسير أن نجد بيننا شخصاً يتمتع بشيء من الحس المرهف وبقسطٍ ولو متواضع من الذكاء والثقافة العلمية ، لم يعان التوتر الذي تنطوي عليه هذه الأسئلة والقلق الذي تثيره ، في إحدى مراحل حياته ونموه . إن الحالة النفسية والفكرية التي تعبر عنها هذه

(١) د . جلال العظم ، في : (نقد الفكر الديني) ص ١٨ ، ٢٩ ط بيروت .

الأسئلة ، أصبحت جزءاً أساسياً من تكويننا . ولكنها تطفو تارةً على سطح الوعي فتشعرنا بعنف وجودها ، وتارة أخرى تختفي في أعماق نفوسنا لتؤثر بسلوكنا وتفكيرنا بصورة مستترة ، ولكن فعّالة .. »

* * *

وبخالص الفهم والعطف ، أسأل معه من رؤيتي للواقع التاريخي الذي شهد أمتنا حققت وجودها الحر مرتبطاً بفكرها الديني ، وحملت لواء الإسلام مناراً لحضارة رائدة قائدة :

ــ هل الخطأ في أصل الفكر الديني ،أو في سوء فهمه والجهل به ، والانحراف عنــــه ؟

بعبارة أخرى :

ــ هل تكون الشخصية الإسلامية بطبيعة فكرها الديني غير صالحة للانسجام مع عقلية عصر العلم الحديث ؟

أو أن هذه الشخصية تعرضت لذرائع تشويه تجعلها غير قادرة على الانسجام مع النظرة الطبيعية للحياة والكون والإنسان ؟

إننا نتكلم في الفكر الديني ، دون أن نميز فيه ما هو من أصله النقي ، وما هو دخيل مدسوس عليه ، أو عارض طارىء .

ونتحدث عن الشخصية الإسلامية ، ولا ندري على التحقيق ما نعني بها ، وإن في المجتمعات الإسلامية لأنماطاً منها متباينة ، قد يصل التفاوت بينها إلى حد التنافر والتناقض .

ومع التسليم بأن كل إنسان منا عالـَم وحده ، فليس أحدنا كأخيه الشقيق ، إلا أن هذا التميز ليس بحيث يطمس ملامح شخصية عامة تـَنميه إلى قومه وأمته .

* * *

فما تكون هذه الشخصية الإسلامية التي يصح بها النظر في فكرها وعقليتها وموقفها من الكون والحياة والإنسان، فيجوز من ثَمَّ، الحكمُ عليها بالقدرة أو العجز عن الانسجام مع المنطق العلمي للعصر الحديث، والصلاحية أو عدم الصلاحية للبقاء ؟

لقد بَعُدَ العهد بالمسلمين الأولين ممن كانوا يمثلون الشخصية الإسلامية كما عرفوها في مَثَلِها القدوة، نبي الإسلام ومبلّغ رسالته، عليه الصلاة والسلام :

وطرأ على هذه الشخصية ما طرأ من ميراث الشعوب التي دخلت في الإسلام بعد الفتوح الكبرى . لكن العقيدة بقيت مناط وحدتها الجامعة، ولواء وجودها الحر الذي حققته بأصالة واقتدارٍ في الدور القيادي للحضارة الإسلامية التي أضاءت للغرب الأوروبي ظلمات عصوره الوسطى، فغذَّ السيرَ إلى العصر الحديث وانتقلت إليه قيادة الحضارة، ودخلنا نحن في ليل التخلف بفعل سنَنٍ حتمية يعرفها قارئو التاريخ .

وطال علينا الليل، فكان سر بقاء هذه الأمة أن بقي لها القرآن دليلَ مسراها . وقد انفرد بمجال النفوذ عليها والتأثير فيها، قبل عصر الطباعة والصحف والسينما والإذاعة، فكان لجماهير الأميين كتاب دينها الذي سهر على حمايتها من الضياع، ونسخ أُمِّيَّتها بنور الوعي، وقادها إلى معارك التحرير الباسلة ضد الاستعمار الأوروبي .

غير أنا ما كدنا ننجو من الاحتلال العسكري، حتى انكشف لنا ما ورثنا من تركة مثقلة برواسب ليل التخلف، مشحونة بمخلفات الغزو المعنوي الذي ألح على شخصيتنا بالمسخ والتشويه، فكان أول ما واجهنا بعد الاستقلال، هذا التصدع في الكيان العام للأمة وفقدان التعاصر بين أبناء الجيل الواحد في البلد الواحد، بحكم انتمائهم الفكري والوجداني إلى مدارس شتى وعصور متفاوتة

وبيئات متباعدة . وماج الفراغ السحيق بينها بتيارات شتّى وافدة ، لا تصدها سدود ولا تعوقها حواجز ، وضج الميدان بدويّ الصدام بين قديم وجديد ، بين يمين ويسار ، بين شرق وغرب .

في النقع المثار ، اهتزت الرؤية وضلّت المقاييس ، وتاهت معالمُ شخصيتنا الإسلامية فلم نعد نميز بين المحافظة والرجعية ، ولا بين الأصالة والجمود . بل لم نعد نفرق في عناصرها وسماتها بين الجوهر والعرض ، ولا بين النقي الأصيل والطارىء الدخيل .

وتمزقنا طوائف وأحزاباً وشيعاً ، وذهبنا طرائق قِدَدا !

وتحررت شعوب أمتنا من الاستعمار التقليدي ، لتواجه متفرقةً استعماراً أخبث وأضرى ..

ومضى عهد الاحتلال الأوروبي ، لنواجه القرصنة الإسرائيلية ونحن فيما بيننا غرباء ...

منا ، نحن جيل الهزيمة ، من يتلقى زاده الثقافي والفكري من تراث الأسلاف ، فيباهي بمناعته ضد التيارات الوافدة . لا يدري أنها تنفذ إليه من حيث لا يدري ، فتأخذه على غرة وغفلة ، وتلقي به تائهاً بأمسيته وراء هذا الزمان ، في ضجيج العصر !

ومنا من لا زاد لفكره ووجدانه إلا البضاعة الأجنبية التي شب عليها وأدمنها ، فتصور أنه نجا بشخصيته متحررةً من أثقال الماضي وأغلال السلف ، لا يدري أنه استقلال موهوم لم يكن له فيه اختيار وقد جهل أصله وتاريخه ، ولا يعي أن حريته التي يباهي بها ، فرضت عليه قسراً ضد طبيعة الأشياء وقانون الوراثة الذي يتحكم فيه ، فتهتز شخصيته وتتخلخل ، بقوة التضاد بين جاذبية

محدَث خلاب ، وجاذبية ميراث غلاب ! [1]

في ظاهر الأمر ، بدت أزمة الغربة مشغلة حِوارٍ بين مثقفي العواصم ، لكنهم في الواقع كانوا يَصِلون إلى الجماهير أو يتصلون بها ، دعاةً ومعلمين ووعاظاً ، وكُتاباً وأدباء ومطربين .

وزادت أزمة الغربة بيننا حدة وتعقيداً ، مع صراع المذاهب المحدَثة والأيديولوجيات الوافدة ، وتسخيرها أجهزة الإعلام العصرية ، من المطبعة إلى الإذاعة مسموعة ومرئية ، في السباق على مناطق التأثير الوجداني والفكري . فتجاذبتنا فيما بينها نافذةً بالترانزستور من مراكزها حيث تكون ، إلى قرى الريف ونجوع البوادي ومنعزل البراري ، ومكّن لها منا أن عرفتنا حيارى تائهين ، لا ندري مَن نحن ، وأين نكون من هذه المذاهب الأجنبية التي تتنازعنا ، وكأننا مجهولو النسب والهوية ، ضائعو الأصل والانتماء !

العصريون المحدثون ، في الموقع الفكري ، موزعون ما بين مدارس شتى ومذاهب متناكرة .

والذين ينتمون إلى الثقافة العربية والفكر الإسلامي تتوزعهم كذلك مدارس متباعدة ومناهج متباينة ، وتحكمهم أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية متنافرة ، وتفرق بينهم عصبياتٌ إقليمية وطائفية ومذهبية وحزبية ...

ونلتقي في البيت الواحد ، غرباء .

وحَسِبنا أننا نستطيع أن نتابع الحياة بهذا الكيان الممزق بالغربة المتصدع بالتنافر ، وشَغَلنا عن معترك البقاء ترفُ الصراع الإيديولوجي ، وفتنة الخصومة الحزبية .

حتى أخذنا العدوُّ على غرة ، فأعفيناه من خوض معركة على أرضنا التي

---

(١) عالجت هذه القضية بمزيد تفصيل في كتابي (قيم جديدة للأدب العربي) ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٧ ودار المعارف ١٩٧٠ .

اغتصبها . وصدر قرار وقف القتال لم يحتمل صبر ساعات ، يحتملها ومثلَها معها ، لقاء فريقين في ملعب كرة ، من أعضاء الأندية أو صبية الأزقة والزنقات والحارات ....

وقيل فيما قيل : قدر مكتوب علينا لا حيلة لنا فيه ولا راد له « والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » كما يغنينا مطربنا الكبير . ومن ثم أُلقي وزرُ الهزيمة على شخصيتنا بهذه العقلية المعطلة للأسباب ، ومنطق تفكيرها المجافي لِسُنّةِ الحياة ومنطقِ العلم وروح العصر .

ويبقى السؤال :

ماذا نعني بالشخصية الإسلامية ، وأنماطنا شتى ونحن فيما بيننا غرباء ؟

أما والكلام عن الشخصية الإسلامية ، فلنحاول أن نلتمسها في جوهرها الحر ، ليضبط لنا المقاييس المضطربة فيما يغيب عنا من ملامحها النقية ، وما يتشابه الأمر فيه علينا فنحسبه أصيلاً وهو في الحق دخيل .

وهذا هو ما تتجه إليه محاولتي هنا في تمثل الشخصية الإسلامية ، محتكمةً إلى أدلة وشواهد من نصوص الكتاب المحكم وصحيح السنّة ، لأبلغَ من قومي مبلغ الإقناع ، فلا يتصور أحد أنني أُثبت للشخصية الإسلامية ما ليس لها في الأصل ، أو أنفي عنها ما أنفي بغير حجة ودليل .

فعسى ألا يضيق الأصدقاء القراء باستكثاري من إيراد النصوص ، وإنها لمادةُ هذه الدراسة ، ليس لي فيها غير جهد التدبر والاستقراء ، ثم جهد التنسيق والعرض .

وأركز بطبيعة الحال ، على ما أقدّر أنه يغيب عن عامة قومي ، من جوهر الشخصية الإسلامية وطابع عقليتها وتفكيرها ، وأصيل سَمتها وملامحها ؛

معتذرةً عن تقصير يشفع له قصورُ الطاقة ، وعن سهو ونسيان أو خطأ وغفلة لا عصمة منها لبشر .

وجلّ مَن له المثلُ الأعلى .

المغرب الأقصى
ربيع الأول ١٣٩٢
مايــو ١٩٧٢

عائشة عبد الرحمن



المبحث الأول

الاسلام والايمان

(قالت الأعرابُ آمَنّا ، قــل لم تُؤمِنوا ولكنْ قولوا
أسلَمْنا ولمّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبِكم)

قرآن كريم



مئات الملايين منا ، دينُهم الإسلام . وجوهر الأمر فيه هو الإيمان ، يتميز به من هو مسلم حقاً ، ومَن يكتفي منه بمجرد الانتماء الرسمي ، أو يمارسه قولاً وشكلاً ومظهراً ، دون أن يتمثله عقيدة وسلوكاً .

وفيمن ينتمون إلى الإسلام ، من تصدق عليهم الآية المحكمة :

(قالت الأعرابُ آمَنّا ، قلْ لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلَمْنا ولمَّا يدخل الإيمانُ في قلوبِكم) .

الحجرات : ١٤

وفيهم كذلك من يؤدون فرائض الإسلام طقوساً آلية ، ومن يراءون بها الناس في المجتمعات المتدينة ، تقيةً ومداراة ومسايرة ، أو نفاقاً وسمعة .

والإيمان منوط بالقلب ، طمأنينة وعقيدة :

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبُهم بذكرِ اللهِ ، ألا بِذكرِ اللهِ تطمئن القلوب)

الرعد : ٢٨

(أولئك الذين كَتَبَ في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه)

المجادلة : ٢٢

(ولكنّ اللهَ حبَّب إليكم الإيمانَ وزيّنه في قلوبِكم) .

الحجرات : ٧

(ربّنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذ هديتَنا وهبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أنتَ الوهاب) .

آل عمران : ٨

وإذ لا يعلم القلوبَ إلا الله ، يكفي للانتماء إلى الإسلام النطقُ بشهادته والقيام بفروضه . وبالإيمان تفترق الشعائر عن الطقوس :

(ذلك ومَن يُعظِّمُ شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوب) .

التوحيد ، وهو جوهر الدين كله ، ننطق بشهادته والله أعلم بالمؤمنين منا ، لا يدينون بالعبودية لغيره ولا يعرفون ربّاً سواه .

وهو سبحانه يعلم الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . ويعلم المنافقين ومرضى القلوب :

(من الذين قالوا آمنا بأفواهِهم ولم تؤمن قلوبهُم) .

المائدة : ١٥١

(يقولون بأفواهِهم ما ليس في قلوبِهم ، واللهُ أعلمُ بما يكتمون) .

آل عمران : ١٦

(يُرضُونكم بأفواهِهم وتأبى قلوبُهم وأكثرهُم فاسقون) .

التوبة : ٨٠

(سيقول لك المخلَّفون من الأعراب شغلتْنا أموالُنا وأهلونا فاستغفرْ لنا ، يقولون بألسنتِهم ما ليس في قلوبهم)

الفتح : ١١

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * اللهُ يستهزىءُ بهم ويمدُّهم في طغيانِهم يَعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى فما ربحت تجارتُهم وما كانوا مهتدين) .

البقرة ١٤ : ١٦

ونقيم الصلاة خشوعاً وإيماناً وتقوى، وويلٌ للمُصَلّين (الذين هم عن صلاتهم ساهون) غافلون عن كونها قياماً بين يدي الخالق يكبح غرور الإنسان ويأخذه بالتواضع وينهاه عن الفحشاء والمنكر .

ونؤتى الزكاة طواعية ، تكافلاً وتعاوناً على الخير العام ، فنجد في إيتائها من غبطة الإيمان وأريحية البذل والعطاء وشكر النعمة ، ما لا يجده الذي يؤدي ضريبة المال مكرهاً ، ولو استطاع أن يتهرب من أدائها لفعل .

ونصوم رمضان تقوى ومجاهدة ، لا رقيب علينا إلا الله والنفس اللوّامة ، والمؤمن هو الذي يقدر لنفسه العذر في رُخَصِ الإفطار ، ويبادر إلى القضاء بعد زوال العذر ، أو الفدية إن لم يستطع القضاء . وإذا لم تعصم الصائمَ تقواه من كلمة سوء ينطق بها أو عملٍ واجب يعطله أو أمانةٍ يفرط فيها ، فليس للهِ حاجةٌ في أن يمسك هذا المخلوق عن طعامه وشرابه .

ويحج إلى المسجد الحرام من يستطيع إلى الحج سبيلاً ، والمؤمنُ رقيبٌ على نفسه فيما يستطيع وما لا يستطيع ، فنؤدي مناسك حجنا شعائر عبادة (من تقوى القلوب) ونلتقي في الموسم الجامع أبناءَ أمة واحدة ، جمعتهم العقيدة عند قبلتهم الواحدة ، قد تماحت بينهم كل الفروق فليسوا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وديارهم سوى عباد الله وحده ، سعوا إليه ضارعين واستجابوا له مُلَبّين ، وهو سبحانه الذي يعلم المؤمنين منهم والمرائين ، ولن يناله من كل ما نقيم من مناسك حجنا غير التقوى :

(لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) .

* * *

هذا الإيمان موكول إلى ضمير الإنسان ، أو « النفس اللوامة » بالتعبير القرآني : هي التي تفرض عليه أن يذكر الله في كل أمره ، وعليها يعتمد الإسلام أساساً فيما يأخذ به أمته من شعائر وتكاليف وسلوك . كل مؤمن رقيب على نفسه خاضع لرقابتها ، وهو أدرى بما يفرط فيه وما يندم عليه ويستغفر له .

وقد يفلت من محاسبة المجتمع ولا يفلت عن حساب هذه النفس اللوامة . وكل قوانين الشرائع الوضعية عاجزة عن أن تحكم الضمير . وما من رقابة خارجية تغني عن مراقبه النفس التي أرهفها الإيمان وحمّلها أمانة الإنسان .

من ثم ، لم يكن لأحد أن ينفي عن الإسلام من نطق بشهادته ، أو يتهم فيها النوايا والسرائر ، هو سبحانه يعلم سرنا ونجوانا .

في عصر المبعث ، هاجرت نساء من قريش إلى المسلمين في المدينة . وصُلْحُ الحديبية قائم . وكان من شروطه « أن من أتى محمداً من قريش بغير أذن وليه رده عليهم » .

ولم يكن من المستبعد ، أن يكون من المهاجرات من خرجت من قريش لسبب أو لآخر غير الإسلام ، كأن تتخلص من زوج مشرك تبغضه ، أو تلحق بذي رحمٍ لها من المسلمين .

وحسم القرآن الموقف بآية الممتحنة : يمتحنهن المؤمنون فيم جئن ، ويُكتفى منهن بشهادة الإسلام دون تعرضٍ لنواياهن ، فأمرُها مفوض إلى العليم بها :

(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن . اللهُ أعلمُ بإيمانِهن ، فإن علمتموهن مؤمناتٍ فلا ترجعوهن إلى الكفار . لا هن حِلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن) .

الممتحنة : ١٠

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(صحيح مسلم)

وفي (كتاب الإيمان) من صحيح مسلم . حديثُ « أسامة بن زيد » حين خرج في سرية فأدرك رجلاً أمعن في المجاهدين قتلاً . فلما رفع أسامة السيف عليه قال : « لا إله إلا الله » . فلم ينج بها .

في رواية عن أسامة . أنه قال : « فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أقال : لا إله إلا الله . وقتلته ؟ » قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفاً من القتل . قال : « أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ » فما زال صلى الله عليه وسلم يكررها علي ، حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ » بعد الذي كان ..

وفي رواية أن البشير جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخبر السرية ، فما زال يسأله حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أسامة فسأله : لم قتلته ؟ قال : يا رسول الله . أوجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً – وسمّى له نفراً – واني حملت عليه فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقتلته ؟ قال : نعم . قال : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال : يا رسول الله ، استغفرْ لي . وقال عليه الصلاة والسلام : وكيف تصنع بلا إله إلا الله ..

فجعل لا يزيده على أن يقول : فكيف تصنع بلا إله إلا الله ؟»

وعن المقداد بن الأسود أنه قال :

– يا رسول الله أرأيتَ إن لقيتُ رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها ، ثم لاذ مني بشجرة فقال : أسلمتُ لله . أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتله »

فقلت يا رسول الله : إنه قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تقتله . فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال » .

وفي (كتاب الإيمان) الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من قال : لا إله إلا الله ، حَرُم ماله ودمه ، وحسابه على الله » فيما يستسر ويُختفى .

فمن يدري إذن ، على أي وجه يقيم المسلم شعائر دينه . تقوى أو مراءاة ؟ وفيها جميعاً من رُخَص الأعذار . ما لا رقيب فيه على المؤمن غير خالقه ونفسه.
قال خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :
« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار .
وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة » .
(صحيح مسلم)

وإذ كان الإيمان مناط الاعتبار ، وهو يتعلق بالقلب ، تقرر عدمُ الإكراه في الدين ، أصلاً من أصول العقيدة الإسلامية ، فليس بعد التبليغ والدعوة ، إلا أن يترك الإنسان لما يطمئن إليه قلبه ، فيحتمل مسئولية حرية اعتقاده :

(قد جاءكم بصائرُ من ربِّكم فمن أبصر فلِنفسِه ومَن عَمِيَ فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ) .

الأنعام : ١٠٤

(لا إكراه في الدين ، قد تبيّن الرشدُ من الغَيِّ) .

البقرة : ٢٥٦

* * *

ولا تلتبس الغيرة عند المؤمنين بالتعصب :

الإسلام يبارك الغيرة على الدين والغضب لحرماته ، ويُلزمنا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة .

لكنه يحظر الإكراه في الدين ، ويُسقط كلَّ وصاية كهنوتية على الإنسان ، تتسلط على عقيدته برقابة إرهابية على سبيل السيطرة أو الوصاية والوكالة ، وتنتحل حق تقرير مصاير العباد ، إلى رحمة وغفران أو سخط وعذاب .

ذلك ما لم يكن للنبي نفسه ، وإنما عليه البلاغ المبين :

(ادعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلْهم بالتي هي أحسن ،

إن ربّك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

النحل : ١٢٥

(فذَكِّر إنما أنتَ مُذَكِّر ۞ لستَ عليهم بمسيْطِر) .

الغاشية ٢١ : ٢٢

(وإن كان كَبُرَ عليكَ إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبتغيَ نَفَقاً في الأرضِ أو سُلَّماً في السماءِ فتأتيَهم بآيةٍ ، ولو شاء اللهُ لجَمَعَهم على الهدَى فلا تكونَنَّ من الجاهلين) .

الأنعام : ٣٥

(وكذَّب به قومُكَ وهو الحق ، قلْ لستُ عليكم بوكيل) .

الأنعام : ٦٦

(ولو شاء اللهُ ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل) .

الأنعام : ١٠٧

لأن الإيمان لا يكون إلا من تقوى القلب وصدق الاستجابة ، مما لا مجال معه لإكراه أو سيطرة . وإذا لم يؤمن الإنسان بقلب مطمئن سليم ، فحملُه على الدين يُلجئه إلى النفاق الذي هو أخبث من الكفر الصريح .

في الحديث الصحيح عن عتاب بن شمير عن أبيه قال :

« قال أبي : يا رسول الله ، إن لي أباً شيخاً كبيراً وإخوة ، فأذهب إليهم فعسى أن يُسلموا فآتيك بهم . قال : إن هم أسلموا فهو خير لهم ، وإن هم أقاموا فالإسلام واسع عريض . »

والغيب محجوب ، فقد يرتد المسلم وليس بينه وبين الموت إلا طرفة عين ، وقد يؤمن الكافر بعد طول فجور وضلال ..

في (كتاب الإيمان) من صحيح مسلم ، الحديث عن أبي هريرة :

« يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً: يبيع دينَه بعَرَضٍ من الدنيا » .

* * *

والشفاعةُ للخلق عند الله ، معلَّقةٌ في العقيدة الإسلامية بإذنه تعالى ، فلا شفاعة « إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .».

« ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » .

سبحانه « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ؟

والبشرية المتدينة تعلقت من قديم بهذه الشفاعة تُرجَى من الأحبار ورجال الكهنوت ، كما عرفتها الوثنية على اختلاف أشكالها وطقوسها .

والشرك في حقيقته لم يكن إنكاراً للخالق ، بل كان — بصريح لفظه — إشراك غيره معه في العبادة . والوثنيون العرب ، الصابئة والمشركون ، عبدوا النجوم والكواكب والأوثان زلفى إلى الله وقربى :

(ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) .

يونس : ١٨

(ولئن سألتَهم مَن خلق السموات والأرضَ وسخّر الشمسَ والقمرَ ليقولُنَّ الله) .

العنكبوت : ٦١

(ألا لله الدينُ الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدُهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلفى) .

الزمر : ٣

وجاء الإسلام فمحق الوثنية وأبطل شفاعة مَن اتَّخذوا من دونه أولياء : (أم اتخذوا من دونِ اللهِ شفعاءَ ، قل أوَ لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا

يعقلون * قل لله الشفاعةُ جميعاً له ملكُ السموات والأرضِ ثم إليه تُرجَعون) .

الزمر ٤٣ : ٤٤

(ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أوّلَ مرةٍ وتركتم ما خوّلناكم وراءَ ظهورِكم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطّعَ بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون) .

الأنعام : ٩٤

***

وبإذنه تعالى يشفعُ ملائكتُه الأبرارُ ورسلُه المصطَفون وعبادُه المكرمون الأخيار : شفاعةً حسنة وشهادةً بالحق لمن ارتضى الله ، ممن يتقونه ويرجون رحمته ويشفقون من خشيته .

(وكم من مَلَكٍ في السماواتِ لا تُغني شفاعتُهم شيئاً إلا من بعد أن يأذنَ اللهُ لمن يشاءُ ويَرضى) .

النجم : ٢٦

(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

الأنبياء : ٢٨

أما الذين حق عليهم غضبُ اللهِ من المجرمين الفاسقين والطاغين الظالمين والكفرة الفجرة .

(فما تنفعُهم شفاعة الشافعين) .

المدثر : ٤٨

(ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاع) .

غافر : ١٨

(وما على الذين يتقون من حسابِهم من شيءٍ ولكنْ ذكرى لعلهم يتقون * وذَرِ الّذين اتخذوا دينَهم لَعباً ولهواً وغرّتهم الحياةُ الدنيا ، وذكّرْ به

أن تُبْسَلَ نفسٌ بما كسبتْ ليس لها من دونِ اللهِ وليٌّ ولا شفيع) .

الأنعام ٦٩ : ٧٠

وفي المنافقين نزلتْ آية التوبة خطاباً لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :
(استغفرْ لهم أو لا تستغفرْ لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفرَ اللهُ لهم ، ذلك بأنهم كفروا باللهِ ورسولِه ، واللهُ لا يَهدِي القوم الفاسقين) .

***

في (السيرة النبوية) أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما نزلت آية الشعراء : « وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربين » دعا قريشاً وقام على الصفا فقال :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسَكم من اللهِ لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباسَ بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفيةُ عمةَ رسولِ الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمةُ بنتَ رسولِ الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً » [1] .

فأنّى لبشرٍ أن يسيطر على عقائد العباد أو يدعى فيهم الوساطة بينهم وبين خالقهم ، والولاية على مفاتيح الرضوان أو الحرمان .

الله يدري أين يضع رحمته :

(يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، والأمرُ يومئذٍ للهِ) .

(١) أخرجه « مسلم » في (صحيحه) وانظر (السيرة النبوية) لابن هشام : ٣١٠/١ ط الحلبي بالقاهرة .

يشهد العلامة الفرنسي « جوستاف لوبون » بأن « للإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل إلى العالم التوحيدَ المحض ».

ثم يضيف : « وتُشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض . وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام . والإسلام خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ...« وساعد وضوح الإسلام وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم . وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ... كما نفسر به السبب في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً ، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أو مغلوبة »[1] .

نشرت هذه الشهادة في سنة ١٨٨٤ ، قبل أن يرسخ الاستعمار الغربي قواعده في أرضنا ويمهدها للغزو الإسرائيلي .

وحقيقة أن الأمة في عصور قوتها وعزتها كانت تعرف الإسلام عقيدة وإيماناً ، وجنود النصر والفتح والمعارك الصليبية ، كانوا على اتصال وثيق مباشر بكتاب دينهم وسيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام .

لكن الوضع اختلف مع بزوغ ما يسمونه فجر اليقظة ؛ ومن عجب أنه

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، في الترجمة العربية لعادل زعيتر ص ١٥٨ ط ثانية ، دار المعارف بالقاهرة .

قد كان فجر الاحتلال الذي أسلمنا إلى القراصنة اليهود . وفيه فُتحت ثغورنا للإرساليات التبشيرية والبعثات الثقافية الأجنبية من كل جنس وملة ، فجاسوا خلال الديار يمعنون فينا تمزيقاً ، وأورثونا بعد رحيلهم عقدة الخواجة ، فليس عصرياً من يفقه دينَه ويعرف لسان قومه وتاريخ أمته ، وليس مثقفاً مـــن لا ينتمي إلى إحدى مدارس الفرنجة !

وبلغ من شذوذ منطق العصرية ، أن يكون منا عرب لا يعرفون لسان عربيتهم ، ومسلمون قد فُرِّغوا من عقيدتهم فما يدرون ما الكتاب وما الإيمان . وهم يلقون أسماعهم إلى مفتريات مدسوسة على الدين ، وتأويلات من بدع الكهان العصريين ، فيرتابون في الإسلام ويظنون به الظنون .

الإسلامُ على وضوح مبادئه ويُسْرِ قواعده ، مناطه الإيمان بوحدانية الخالق المعبود . وليس خالقنا في العقيدة الإسلامية شخصاً مجسداً تدركه الأبصار وإنما نعبد فيه الحق والخير والعزة ، والمثلَ الأعلى والأسماء الحسنى .

وإيماننا به إيمان بثبات السنن الكونية وحتمية الحساب العادل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . والإنسان في عزة إيمانه بخالقه وحده ، يرفض الذل والضيم والبغي والهوان . ويخشع في الوقت نفسه لخالقه ، خشوعاً يكبح جماح غروره ويذكره دائما بأن « الله أكبر » :

(وعبادُ الرحمن الذين يَمْشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياما * والذين يقولون ربّنا اصرفْ عنا عذابُ جهنم إن عذابَها كان غراما * إنها ساءت مُستقراً ومُقاما * والذين إذا انفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قواما * والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفسَ التي حرّم اللهُ إلا بالحقِّ ولا يزنون ، ومن يفعلْ ذلك يَلْقَ أثاما * يُضا عَفْ له العذابُ يومَ القيامة ويَخلُدْ فيه مُهانا * إلا مَن تاب وآمَن وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى اللهِ مَتابا * والذين لا يَشهدون الزورَ وإذا مرّوا باللغوِ مرّوا كراما *

والذين إذا ذُكِّروا بآياتِنا لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعميانا * والذين يقولون ربّنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قرةَ أعيُنٍ واجعلنا للمتقين إماما)

الفرقان ٦٣ : ٧٤

ويقترن الإيمان في العقيدة الإسلامية بعمل الصالحات ، على ما قرره القرآن في نحو خمس وسبعين آية . مع الوعد والبشرى لمن يؤمن بالله ويعمل صالحاً أن لا يخاف ظلماً ولا هضماً ، لا كفران لسعيه، له جزاء الحسنى ، وحياة طيبة .

والذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لهم الدرجات العُلَى ، ولهم أجرهم عند ربهم : أجر كريم عظيم ، كبير ، غير ممنون ..

كما يأتي النهي عن الشرك ، معطوفاً على الأمر بالعمل الصالح .

(فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا)

الكهف : ١١٠

ومن ثم ، يتسع الإيمان لكل خير وبر ، وعفة وكرم وأمانة وصدق ، وعدل وإحسان وتسامح وتواضع ورحمة .

(إن اللهَ يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكّرون * وأوفوا بعهد اللهِ إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيْمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون .)

النحل ٨٩ : ٩١

(لا تجعلْ مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا * وقَضَى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إمّا يبلغنّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقل لهما قولاً كريما * واخفِض لهما جناحَ الذلِّ من الرحمةِ وقل ربِّ ارحمْهما كما ربّياني صغيرا * ربُّكم أعلمُ بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفورا * وآتِ

ذا القربى حقه والمسكينَ وابنَ السبيل . ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطانُ لربِّه كفورا)

(ولا تقتلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلَهم كان خِطْئاً كبيرا * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ ، ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطانا فلا يُسرِفْ في القتل إنه كان منصورا * ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشُدَّه ، وأوفوا بالعهدِ إن العهدَ كان مسئولا * وأوفوا الكيْلَ إذا كِلْتم وزِنوُا بالقسطاسِ المستقيم ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا * ولا تقفُ ما ليس لك به علم ، إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنك لن تخرِق الأرض ولن تبلغَ الجبالَ طولا * كلُّ ذلك كان سيِّئه عند الله مكروها * ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة . ولا تجعل مع اللهِ إلهاً آخرَ فتُلقَى في جهنمَ ملوماً مدحورا).

الإسراء ٢٣ : ٣٩

في (كتاب الإيمان) من صحيحي البخاري ومسلم ، قال نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام :

« بُعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق »

« إن المرء ليدرك بحسنِ خلقِه درجة القائم بالليل الظامىء بالهواجر »

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يغل أحدكم — يخون — حين يغل وهو مؤمن ، والتوبةُ معروضة بعدُ »

« من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِر فلا يؤذِ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفَه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرا أو فليَصْمت »

وفي (كتاب البر والصلة والآداب) من صحيح مسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه :

« أتدرون ما المفلس ؟ »

قالوا : المفلس فينا مَن لا دِرهمَ له ولا متاع .

فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكلَ مالَ هذا ، وسفك دمَ هذا ، وضرب هذا . فيعُطى هذا من حسناته وهذا من حسناته . فإن فنيتْ حسناتُه قبل أن يُقضَى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه... »

***

الإسلام سهل لأنه دين الفطرة، لكن تكاليف الإيمان في العقيدة الإسلامية شاقة . وأشق ما فيها أنه يُحمِّلُ الإنسان أمانته الصعبة .

ويشهد الفيلسوف المسيحي « بايْل » فيما نقل عنه جوستاف لوبون [1] :

«أن من الضلال أن يُعزى انتشارُ الإسلام السريع في أنحاء الدنيا، إلى أنه يلقي عن كاهل الإنسان ما شق من التكاليف والأعمال الصالحة ... فقد دون « هوتنجر » قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين . فأرى ، مع القصد في مدح الإسلام ، أن تلك القائمة تحتوي على أقصى ما يمكن أن يؤمَر به إنسانٌ ، من التحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام »

وإن لم يلتفت إلى أن هذه الأخلاق الكريمة عند المسلمين ، هي من التكاليف المفروضة التي يلتزمها المؤمنون ، ديناً وعقيدة .

***

---

(١) الحضارة الإسلامية : ص ١٥٨ من الترجمة العربية في الطبعة الثانية للمعارف .

ما الذي يُنكر المرتابون في الدين من هذا كله ؟

أن نؤمن بالله وحده لا نعبد إلا إياه ؟

أن نؤمن بثبات السنن الكونية وحتمية الحساب والجزاء ؟

أن يحمل الإنسان أمانة إنسانيته ، فيخضع لأدق رقابة من نفسه ، على خُلقه وسلوكه ؟

أن تكون العفة والأمانة والصدق والعدل والإحسان والبر والرحمة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تكاليف دينية يلتزمها المؤمن عقيدةً وتقوى ؟

بل ماذا يعوز الحائرين من اقتناع بدين يرهف الضمير المؤمن إلى المدى الذي تظل الإنسانية ما بقيت ، طامحة له كادحة إليه ، دون أن تشارف أفقه .

الإسلام يعد دَعَّ اليتيم وعدم التحاض على الخير والمرحمة ، تكذيباً بالدين . ويحبط عبادة المرائين .

(أرأيتَ الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم * ولا يحض على طعامَ المسكين * فويلٌ للمصلّين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون)

وفي صحيح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عُذِّبت امرأة في هرة سجَنَتْها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار : لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتْها تأكل من خشاش الأرض»

« إن امرأةً بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش ، فنزعت له بمُوقِها — خُفها — فسقتْه فغُفِر لها »

« بينا رجل يمشي بطريق ، اشتد عليه العطشُ فوجد بئراً فنزل فيها فشرب . ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني . فنزل البئرَ فملأ خُفّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقِيَ ، فسقى الكلبَ ، فشكر الله له فغفر له »

قيل : يا رسول الله ، وإن لنا في هذه البهائم أجراً ؟

فقال : « في كلِّ كبِدٍ رطبةٍ أجرٌ »

وصدق الله تعالى : « ذلك الدين القيم ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون »

المبحث الثاني :

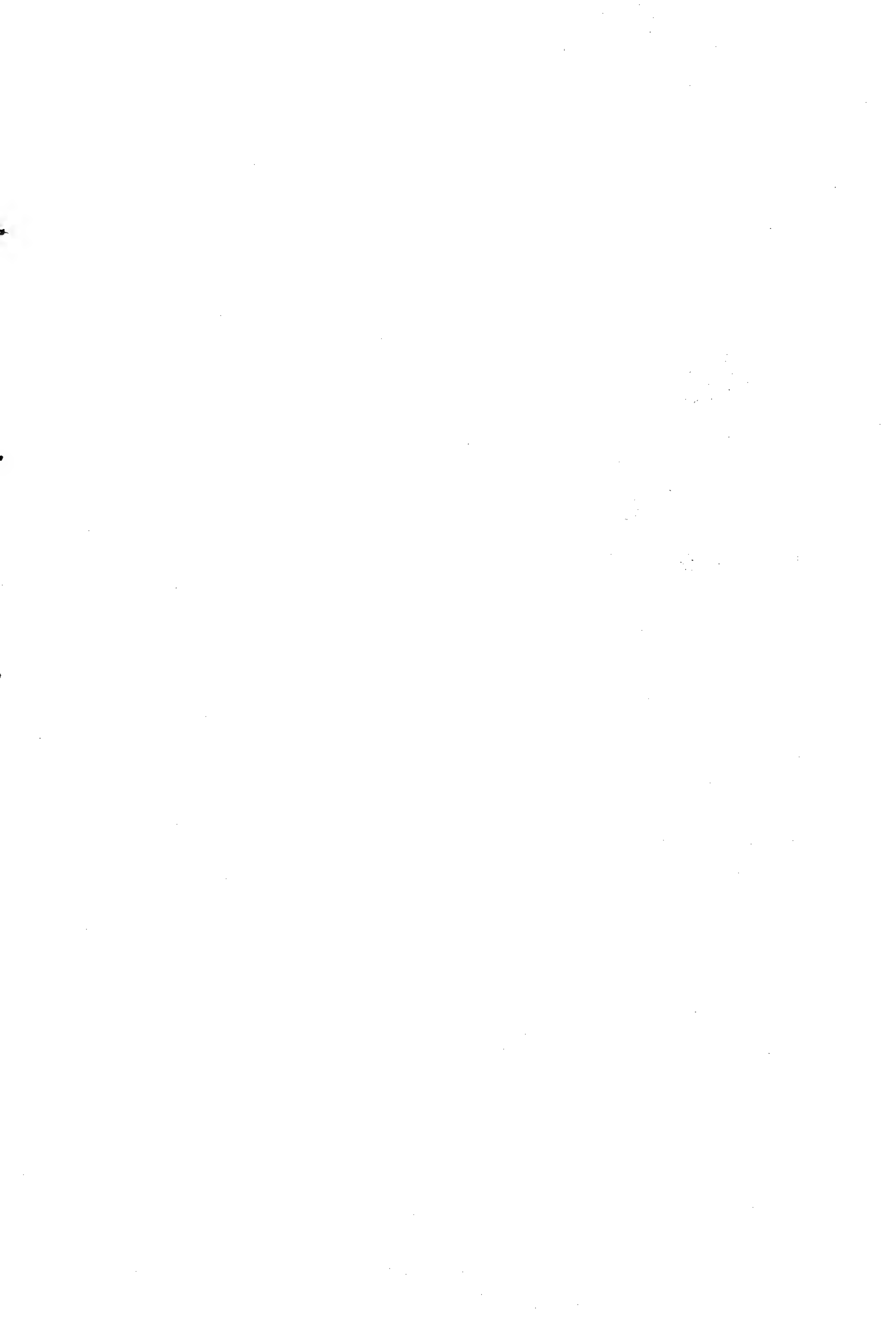
بشر لا ملائكة

(قُلْ لا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللهِ ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ لكم إني مَلَكٌ ، إن أتبعْ إلا ما يوحَى إليّ)

قرآن كريم

(إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألْحَنَ بحُجَّته من بعضٍ فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له بشيءٍ من حقّ أخيه فلا يأخذَنّ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من نّار)

محمد، رسول الله



بقدر ما تبدو تكاليف الإيمان شاقة صعبة ، أنظر في الشخصية الإسلامية فيلفتني من أصيل ملامحها ، بشريتُها السوية التي تفترق بها عن الملائكة الأطهار ، والشياطين الأشرار .

ذلك لأننا جرينا على تشبيه المؤمن التقي بالملائكة ، ولا علم لنا بها سوى ما سمعنا عنها في رسالات الدين ، فآمن بها المتدينون سماعاً ، وأخذت في التفكير البشري رمزَ مثلٍ عالٍ للخير والطهر والجمال ، كما أخذ الشيطان رمز الشر والقبح .

وكان أن تصورْنا أن الشخصية الإسلامية لا تتجلى إلا بمقدار ما تقرب من تمثّلنا للملائكة في نقائها وطهرها ونورانيتها ، وامتثالها لأمر الخالق : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »

ويصطدم هذا التصور بواقعنا على الأرض فيدعو إلى يأس وقنوط . وأبناؤنا يدركون استحالة تحقق هذا الطهر الملائكي في البشر ، ويعطيهم العصر جرأة على التمرد ، إن لم يدفع بهم اليأس إلى سخرية وضلال .

ومنهم مَن تتعقد شخصيته بصدمة المفارقة بين المثال والواقع . وأزمة الحيرة بين ملكوت الملائكة وجاذبية الأرض . سواء أكانت هذه الصدمة من سلوكهم الشخصي ، أم كانت ممن يرون فيهم القدوة الصالحة والمثل الأعلى ، فيخيب الرجاء وتهتز الرؤية حين يشهدونهم يتعثرون ويزلون ويخطئون .

من هَدْي القرآن أعلم أننا لسنا ملائكة ، وما ينبغي لنا أن نكون .

نحن جميعاً بشر آدميون ، ليست لنا طبيعة الملائكة . ولا حيلة لنا في أن خُلِقنا من مادة غير التي خُلقوا منها ، فهذه فطرتنا السويّة التي برأنا الله عليها « لا تبديل لخلق الله »

ولا بأس علينا من التشبه بالملائكة ، إذا أريد به مجاهدة أهوائنا ومحاولة التسامي والتطهر ، فالإنسانية فينا تظل كادحة أبداً إلى ما نتصوره مثلاً أعلى ،

ونبقى مع هذا التسامي بشراً ، أبناء هذه الأرض التي خُلقنا منها وإليها نعود ، فلسنا نعرف سواها مهداً لنا ومثوى .

ولسنا بهذه البشرية الآدمية دون الملائكة منزلة وقدراً : الملائكة مسخرون في أمر ربهم ، والله سخّر لنا ، نحن الآدميين ، ما في السموات والأرض وما بينهما ! ولقد أُمِروا أن يسجدوا لآدم ، تكريماً وخضوعاً ، وتسخيراً بأمر الله . واستُخلِف دونها في الأرض من قبل أن يهبط إليها . وهذا ما عجبتْ له الملائكة ، إذ الكونُ قبل هذا الآدمي مبرأ مما يُتوقع منه من عصيان وغرور وإفساد ، والملائكة تسعى فيه بأمر ربها ، وكل الكائنات تخضع لما يُراد بها على وجه التسخير المطلق .

لم يكن الملائكة يعلمون وجه إيثار آدم بالخلافة في الأرض دونهم ، لمـا هيىء له من قدرة على كسب العلم ، يحقق بها آية الخالق فيما سخر لنا سبحانه ما في السموات والأرض وما بينهما :

(وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نُسبِّح بحمدِك ونُقَدِّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون)

البقرة : ٣٠

كيف كان هذا الحوار بين الله وملائكته ؟ بأي لسان ، وعلى أي وجه ومن أي سبيل ؟

ذلك كله من الغيب الذي لا نخوض فيه ، وحسبنا منه الدرسُ والعبره . وفي القرآن ما هو على لسان أمم بادت وأشخاصٍ غبروا ، لا علم لهم بالعربية التي نزل بها كتاب الإسلام . بل فيه كذلك ما هو على لسان الحشرات والدواب والطير العجماء والجماد الأصم ، تعبيراً عن مواقف وأحوال مما هو مناط اعتبار ، يقدمها البيان القرآني بكلماته وأساليبه .

* * *

وكانت فتنة إبليس ، أن ظن قبلٍ طرده من الملكوت ، أنه خير من هذا الآدمي ، فاستكبر أن يسجد له بأمر ربه ، وباء باللعنة الأبدية :

(ولقد مكّناكم في الأرضِ وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون * ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتُك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين)

الأعراف ١١ : ١٣

ولم يحل دون تكريم الآدمية ، ما جُبلت عليه من استعداد للخير والشر ، للطاعة والمعصية ، للهدى والضلال . فذلك من مقتضيات حملها أمانة التكليف الصعبة التي أشفقت منها السموات على رحابة آفاقها وشاهق علوها ، والأرضُ على سعتها وضخامتها وطاقتها المادية على التحمل ، والجبالُ على صلابتها ورسوخها . وحمَلها هذا الإنسان، باختياره، على ضآلة جِرمه وضعف طاقته المادية بالنسبة إليها . فظلم نفسه بالعبء الثقيل ، عن جهلٍ بفداحة مسئولية الاختيار وعُسر الحساب :

(إنا عرضنا الأمانة على السمواتِ والأرضِ والجبال فأشفقن منها وأبين أن يحملنها وحملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولا * ليُعذّبَ اللهُ المنافقين

والمنافقاتِ والمشركين والمشركاتِ ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيما)

الأحزاب ٧٢ : ٧٣

« وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفا »

لكنه ، على ضعفه ، قوي بمعنوياته التي يخوض بها صراعه الأبدي بين الخير والشر ، ومكابدته الباهظة لما هو متروك لحرية كسبه واختياره .

أبونا آدم ، الإنسان الأول ، لم يلبث في الجنة إلا ريثما ابتُلِي بالتكليف وامتُحِن بفتنة الغواية ، فأصغى إلى وسوسة إبليس ونسي عهد ربه ، ثم ندم فتاب الله عليه :

(ولقد عَهِدنا إلى آدمَ من قبلُ فنسِيَ ولم نجد له عزما * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليسَ أبى * فقلنا يا آدمُ إن هذا عدوٌّ لك ولزوجِك فلا يُخرجَنّكما من الجنةِ فتَشقى * إن لكَ ألا تجوعَ فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضحى * فوسوس إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أدلُّكَ على شجرةِ الخُلد ومُلكٍ لا يَبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوآتُهما وطفِقا يخصفان عليهما من ورقِ الجنةِ ، وعَصَى آدمُ ربَّه فغَوى * ثم اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهَدَى)

طه ١١٥ : ١٢٢

ومفهومٌ من صريح النص فيها أن إبليس هو الشيطان ، عدو الإنسان وعدو الحق والخير والهدى . وأنه يأتي الإنسانَ عن طريق الوسوسة إلى نفسه الأمارة بالسوء . وكل حوار بينهما إنما هو من هذا القبيل. فإن تجسَّد إبليس شخصاً ، فإنما يتمثل في أعداء الخير من حزب الشيطان في كل زمان ومكان .

***

من عبرة الخطيئة الأولى ، هذا الفرق الجليُّ بين موقف إبليس وموقف

آدم : عصي كلاهما أمر الخالق ، لكن إبليس أُخِذ بمنطق التسخير المفروض عليه وعلى الملائكة وسائر المخلوقات عدَا الإنسان ، فما كان له إلا أن يمتثل لما أُمِرَ به ، كما امتثلت الملائكة .

ويُمتحن آدم بالتكليف ويبتَلى بوسوسة الشيطان ، فينسى ويعصي ويغوي، ثم يندم ويتوب فيقبل الله توبته .

ومن الجيل الأول للآدمية ، بدأ الصراع الأبدي بين الخير والشر على هذه الأرض . وتحقق ما توقعت الملائكة من إفسادٍ فيها وسفكٍ للدماء .

ابنا آدم ، طوَّعت لأحدهما نفسُه الأمارة بالسوء قتلَ أخيه ، غيرة وحسداً ، فقتله فأصبح من الخاسرين ، ثم ثابت إليه نفسه اللوامة فأصبح من النادمين :

(واتلُ عليهم نبأ ابني آدمَ بالحق إذ قرَّبا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر ،قال لأقتلنّكَ قال إنما يتقبل اللهُ من المتقين * لئن بسطتَ إليَّ يدَك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلكَ إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين * إني أريد أن تبوءَ بإثمي وإثمك فتكونَ من أصحابِ النار ، وذلك جزاءُ الظالمين * فطوَّعت له نفسُه قتلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث اللهُ غراباً يبحثُ في الأرضِ ليُرِيَه كيف يواري سوءةَ أخيه ، قال يا ويلتَا أعجزتُ أن أكون مثلَ هذا الغرابِ فأواريَ سوأةَ أخي ، فأصبَحَ من النادمين)

المائدة ٢٧ : ٣١

كيف قتله ؟ بالضرب أو بالخنق ؟ وفي أي موضع من الأرض كان مسرح هذا المشهد الفاجع ؟ وبأي لسان كانت الخصومة والحوار ؟

ذلك ما لم يتعلق القرآن بذكره ، بل لم يتعلق كذلك بذكر اسمي ابني آدم ، القاتل والمقتول ، وكم كان عمر كلٍّ منهما ، وأيهما أكبر من أخيه ...

تركيزاً على موضع العبرة في قِدَم هذا الصراع بين الخير والشر ، وما تنزع إليه الآدمية من عواطف وأهواء ، توطئة لأساس التشريع الديني في المجتمع البشري :

(أنه مَن قتل نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً)

المائدة : ٣٢

***

وفي إنسانيتنا غرور وقصور ، فلا عصمة من ذنوب نقترفها فنندم عليها ونتوب إلى الله منها . ونحن البشر جميعاً نخطىء وننسى ونغفل ، وذلك من فطرة البشرية فينا ، وجل مَن (لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم)

ولنا طاقة على التكاليف والفرائض محدودة بوسعنا ، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وُسعَها ولا يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به .

(ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ ولكنْ يريدُ ليُطهِّرَكم)

المائدة : ٦

(وما جعل عليكم في الدينِ من حَرَجٍ)

المائدة : ٦١

(يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)

في (كتاب الصلاة) من صحيح الحديث عن أبي مسعود الأنصاري قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجلِ فلان — وذكرَ أحد الصحابة ممن يؤمون الناس في الصلاة— مما يُطيل بنا . فما رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم غضِب في موعظة قط ، أشدَّ مما غضب يومئذ . فقال : « يا أيها الناس ، إن منكم منفرين، فأيكم أمَّ الناسَ فليوجز ، فإن من ورائه الكبيرَ والضعيفَ وذا الحاجة »

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني لأدخل الصلاة أريد إطالتَها فأسمع بكاء الصبي فأخفف ، من شدة وجد أُمِّه به »

وفي (كتاب الإيمان) : عن عبدالله بن عمر :

« كنا نبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، يقول لنا : فيما استطعتَ »

وفي (كتاب النَّذْر) : أن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك شيخاً يمشي بين ابنيه يتوكأ عليهما – من وَهَنٍ – فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما هذا ؟ »

قال ابناه : يا رسول الله ، كان عليه نذر .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام :

« إن اللهَ عن تعذيبِ هذا نفسَه ، لغني » وأمره أن يركب .

وكلُّ الرخَص الشرعية في العبادات والفرائض ، منظور فيها إلى طاقتنا وأعذارنا .

ونسهو في الصلاة فينجبر سهونا فيها بسجود السهو ، على ما هو موضح في (باب سجود السهو) من السنة . ولنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يسهو فيقول للصحابة : « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكِّروني ، وإذا شكَّ أحدُكم في صلاته فليتحرَّ الصوابَ فليتم عليه ، ثم ليسجد سجدتين »

فيروي أنه صلى الله عليه وسلم صلىَّ الظهر خمساً ، فلما سلّم قيل له : أزِيد في الصلاة يا رسول الله ؟ قال : وما ذاك ؟ قالوا : صليتَ خمساً . فسجد سجدتين .

وعن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم صلىَّ العصر ، فسلم في ركعتين . فقيل له : أقُصِرت الصلاة يا رسول الله أم نسيتَ ؟ وذكروا له ما كان ، فأتم ما بقي من الصلاة ثم سجد سجدتين وهو جالس ، بعد التسليم .

وننسى فنأكل أو نشرب إذ نحن صائمون، فلا تثريب علينا ونُفطر لعذر فيقبل منا القضاء عدةً من أيام أخر، وتُقبل منا الفدية عما نُقصر فيه من شعائر العبادات إذا شق علينا قضاؤها .

كما تقبل منا ، الكفارة في القتل الخطأ وفي الظهارِ والحِنث باليمين .

ولا تقبل من كافرٍ فديةٌ ولو كانت ملء الأرض ذهباً :

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كُفارٌ فلن يُقبَل من أحدِهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به)

آل عمران : ٩١

« إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومِثلَه معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم ولهم عذاب أليم »

المائدة : ٣٦

ولا جُناح علينا فيما نُضطر إليه . فالضرورات تبيح المحظورات : « فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه » .

كما لا جُناح علينا في الخطأ غير المتعمد :

(وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ، ولكنْ ما تعمدتْ قلوبكم)

الأحزاب : ٥

(لا يؤاخذُكم اللهُ باللغوِ في أَيْمانِكم ولكنْ يؤاخذُكم بما عقّدتم الأيمانَ)

المائدة : ٨٩

وجزاء سيئة سيئة مثلها .

وكذلك تُجزَى الحسنة بمثلها إذا لم تتجاوز النيةَ إلى العمل ، فإذا عمل بها المؤمن ، فالجزاء أضعاف مضاعفة .

ويتجاوز الله عن هواجس المؤمنين « ما لم يتكلموا أو يعملوا بها » .

والوسوسة بما يتحرج المؤمن من قوله ، من صريح الإيمان .

في (كتاب الإيمان) من صحيح مسلم :

جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به . قال : « وقد وجدتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذاك صريح الإيمان »

وعن عبدالله بن عمر :
سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة – تهجس في الخاطر ولا يقولها اللسان – فقال :
« تلك محضُ إيمان »



من ثمَّ تأخذ التوبة مكانها الجليل في العقيدة الإسلامية . ومنطق التوبة فيها أن الإنسان فيما يُبتلى به من معصية وذنب ، مرجو لأن يندم ويتوب ، فتكون توبته إقراراً بالذنب وعزماً على عدم الإصرار عليه . والأمر في ذلك كله يخضع لحساب نفسه اللوامة ، وليس لإجراءات شكلية يؤديها فيأخذ بها الغفران .

الندم والتوبة ، كلاهما ، من أفعال القلوب ، فليس النادم بحاجة إلى أن يعترف بذنبه لمخلوق مثله ، لعله أحوج منه إلى عفو ومغفرة . بل تصح التوبة بتحقق أركانها الثلاثة :

أن يقلع عن المعصية ، ويندم على فعلها ، ويعزم على ألا يعود إليها .

وذلك كله معقود على صدق النية ، والله سبحانه أعلم بمضمر النوايا وخفايا القلوب وما تكن الصدور ، وهو وحده الذي يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات .

ونحن المسلمين نعلم أنه : (إنما التوبةُ على اللهِ للذين يعملون السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب)

(وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضَرَ أحدَهم الموتُ قال إني تُبْتُ الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار)

النساء ١٦ ، ١٧

غير أننا قلما نتدبر مغزى التوبة في كونها ليست إلا عن ذنوب نقترفها وخطيئاتٍ لا عصمة منها لبشر :

(ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بظلمهم ما ترك عليها من دابة)

النحل : ٦١

« وربُّك الغفورُ ذو الرحمة لو يؤاخذُهم بما كسبوا لعجّل لهم العذابَ ، بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه مَوئِلا)

الكهف : ٥٨

ومن رحمة الله بنا ؛ أن يمهلنا عسى أن نتوب ونتدارك ما فرطنا فيه من أمرنا ، وأي بشر منا لا يفرط في أمره ؛ وكلنا لآدم وحواء ؟

«نوح» عليه السلام ، شق عليه أن يهلك ابنه في الطوفان مع الكافرين ، فسأل ربّه فيه ، فوعظه أن يكون من الجاهلين :

(ونادى نوحٌ ربّه فقال ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدَك الحقُّ وأنتَ أحكمُ الحاكمين * قال يا نوحُ إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غيرُ صالح فلا تسألَنَ ما ليس لكَ به علمٌ ، إني أعظُك أن تكونَ من الجاهلين * قال ربِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علمٌ ، وإلا تغفرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرين)

هود ٤٥ : ٤٧

وتضرع إلى الله :

(ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتيَ مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات)

نوح : ٢٨

و « يونس » عليه السلام ، صاحب الحوت ، ضجر بالابتلاء ونفد صبره عليه ، لولا أن تداركه الله بنعمةٍ منه ، وجعل منه عبرة لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :

(فاصبرْ لِحُكمِ ربِّك ولا تكُنْ كصاحبِ الحوتِ * إذ نادى وهو مكظوم *

لولا أن تداركه نعمةٌ من ربِّه لنُبِذَ بالعراءِ وهو مذموم * فاجتباه ربُّه فجعله من الصالحين)

القلم ٤٨ : ٥٠

وكانت دعوةُ ابرهيم واسماعيل ، عليهما السلام :

(ربّنا واجعلنا مسلمَيْنِ لكَ ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرِنا مناسكَنَا وتُبْ علينا إنك أنتَ التوابُ الرحيم)

البقرة : ١٢٨

وظلم موسى نفسه ، وقد بلغ أشُده :

استصرخه رجل من شيعته على رجلٍ من عدوه فقتله ، لم يتمهل حتى يستيقن من أمره ، ليعرف ما إذا كان له أن يقتله :

(ودخل المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلِها فوجدَ فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوِّه، فاستغاثه الذي من شيعتِه على الذي من عدوِّه فوكزه موسى فقضى عليه، قال هذا من عملِ الشيطانِ إنه عدوٌّ مُضِل مبين * قال ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم * قال ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمين * فأصبح في المدينة خائفاً يترقبُ فإذا الذي استنصره بالأمسِ يستصرخُه ، قال له موسى إنك لَغَوِيٌّ مبين * فلما أرادَ أن يَبطشَ بالذي هو عدوٌّ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلَني كما قتلتَ نفساً بالأمسِ إنْ تريدُ إلا أن تكونَ جباراً في الأرض وما تريد أن تكونَ من المصلحين) .

القصص ٤٥ : ٤٩

وهَرون : إستخلفه أخوه موسى على بني إسرائيل حين ذهب لميقاتِ ربِّه بعد أن نجاه وقومه من وطأة فرعون، فاتخذ القومُ من حليهم عِجْلاً جسداً عبَدوه. وتخاذل هَرون مستضعفاً ، خوفاً من أن يقتلوه !

(ولما رجَع موسى إلى قومه غضبانَ أَسِفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتُم أمرَ ربِّكم ، وألقى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيه يجُرُّه إليه ، قال يا ابنَ أمِّ إن القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمِّتْ بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال ربِّ اغفرْ لي ولأخي وأدخلْنا في رحمتِك وأنت أرحمُ الراحمينُ * إن الذين اتخذوا العِجلَ سينالهم غضبٌ من ربِّهم وذِلةٌ في الحياةِ الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين) ..

الأعراف ١٥٠ : ١٥١

وفي داود وسليمان ، عليهما السلام ، نزلت الآيات المحكَمَات :

(وظن داودُ أنما فتنَّاه فاستغفر ربّه وخرَّ راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزُلفى وحسنَ مآب * يا داودُ إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقِّ ولا تتبع الهوى فيضلَّك عن سبيلِ الله ، إن الذين يَضِلون عن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يومَ الحساب »

« ولقد فتَنَّا سليمانَ وألقينا على كرسيِّه جسداً ثم أناب * قال ربِّ اغفر لي وهبْ لي مُلكاً لا ينبغي أن يكون لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب)

ص ٢٤ : ٣٥

وفيما نتلو من كتاب ديننا خطاباً لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :

(عبَس وتولَّى * أن جاءه الأعمى * وما يُدريكَ لعله يزَّكى * أو يذَّكَّرَ فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تَصَدَّى * وما عليك ألا يزَّكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تَلَهَّى * كلا إنها تذكرة * لمن شاء ذكَرَه)

عبس ١ : ١٢

(وتُخفي في نفسك ما اللهُ مُبْديه وتخشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه)

الأحزاب : ٢٧

(يا أيها النبيُّ لِمَ تُحرِّم ما أحلَّ اللهُ لك تبتغي مرضاة أزواجك واللهُ غفور رحيم)
التحريم : ١

(واذكرْ ربَّكَ إذا نسيتَ، وقلْ عسى أن يهديَنِ ربِّي لأقربَ من هذا رشدا)

الكهف : ٢٤

(لقد تابَ اللهُ على النبيِّ والمهاجرين والأنصارِ الذين اتبعوه في ساعةِ العُسرة من بعدِ ما كاد يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم، إنه بهم رءوفٌ رحيم)

التوبة : ١١٧

(إذا جاء نصرُ اللهِ والفتحُ * ورأيتَ الناسَ يدخلون في دين اللهِ أفواجاً * فسبِّحْ بحمدِ ربِّك واستغفرْه ، إنه كان توابا)

فإذا كـــان للصفوة الرسل عليهم السلام – وهم المعصومون من الكبائر بإجماع –[1] ما يتوبون منه ويرجون مغفرة الله فيه ، فأنى لبشرٍ منا عصمة من ذنبٍ وغنى عن عفو ومغفرة ؟

المؤمنون جميعاً يخطئون ويغفلون ،

والمؤمنون جميعاً ، أمِروا بأن يتوبوا إلى الله :
(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى اللهِ توبةً نَصُوحاً عسى ربُّكم أن يُكفِّرَ عنكم سيئاتكم »

التحريم : ٨

(وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون)

النور : ٣١

---

(١) ابن العربي : الأحكام ٢٧/١ ط الحلبي بالقاهرة .

قُصارَى جهد المتقين منا أن يضيقوا بالصغائر ويجتنبوا .(كبائر الإثـــم والفواحش إلا اللمـَم)

فإذا عملوا سيئة أو تورطوا في فاحشة ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم :

(ومن يعملْ سوءاً أو يظلمْ نفسـَه ثم يستغفر اللهَ يجد اللهَ غفوراً رحيما)
النساء : ١١٠

(والذين إذا فعلوا فاحشةً أوظلموا أنفسَهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لذنوبهم ومَن يغفر الذنوبَ إلا اللهُ ، ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون* أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربِّهم)
آل عمران : ١٣٥

التوبة تطهير « والله يحبُّ التوابين ويُحب المتطهرين »
والله يريد أن يتوب على عباده .

ومهما يسرفوا على أنفسهم فمغفرةُ الله واسعة ، وهو سبحانه ينهى عن القنوط من رحمته :

(قلْ يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسِهم لا تقنَطوا من رحمةِ اللهِ ،إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم)
الزمر : ٥٣

بل إن هذا القنوط يُحمَل في العقيدة الإسلامية على الضلال والكفر :
(ومن يَقْنَطْ من رحمةِ ربِّه إلا الضالون)
الحجر : ٥٦

(ولا تيأسوا من رَوْحِ اللهِ إنه لا ييأسُ من رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون)
يوسف : ٨٧

في حديث قدسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن الله يقول : أنا عند ظنِّ عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني »

وفي (كتاب الحدود) من صحيح مسلم ، حديثُ الغامدية التي جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إني قد زنيت فطهرْني .

فردّها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما كان الغد عادت تلح في طلب التطهير ، وتقول :

— يا رسول الله ، لمَ تردُّني ؟ فوالله إني لحبلى .

قال : إما لا ، فارجعي حتى تلدي .

فلما ولدتْ جاءت بالصبي في خرقة ، تسأل الحدّ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه »

فلمـــا فطمته أتت النبي صلى الله عليه وسلم بالصبي وفي يده كسرةُ خبزٍ فقالت : هذا ، يا نبي الله ، قد فطمتـُه ، وقد أكل الطعام .

فدفع الصبيّ إلى رجل من الصحابة ، ثم أمر بها فرُجِـمت . فسبّها «خالد ابن الوليد » فقال صلى الله عليه وسلم :

« مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مكسٍ لغُفـِر له » .

وجاءته أخرى ، من جهينة ، فقالت : يا نبي الله ، أصبتُ حدّاً فأقِمـهْ عليّ .

وعرف صلى الله عليه وسلم أنها حامل ، فدعا وليّـها فقال له :«أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتني بها .

ورُجمت . ثم لما ماتت صلى عليها النبي فتساءل عمر بن الخطاب : تصلي عليها وقد زنَتْ ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

« لقد تابت توبة لو قُسِّمت بين سبعين من أهلِ المدينة لوسِعتْهم، وهل وجدت توبةً أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟»

والله تعالى يقول فيمن يأتون فاحشة الزنى :

(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإنْ تابا وأصلَحا فأعرِضُوا عنهما ، إن اللهَ كان تواباً رحيما)

النساء : ١٦

وفي (كتاب الإيمان) من حديث أبي ذرٍّ الغفاري » أنه أتى الرسولَ صلى الله عليه وسلم في بيته فجلس إليه ، فقال :

« ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة »
سأل أبو ذر : وإن زنى وإن سرق ؟

قال عليه الصلاة والسلام : « وإن زنى وإن سرق »

فأعاد أبو ذر السؤال مرتين وثلاثاً، لم يَكُفَّ حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرة الرابعة :

« وإن زنى وإن سرق ، على رغم أنفِ أبي ذر » !

فخرج رضي الله عنه وهو يروي الحديث ويقول :

« وإن رغِمَ أنفُ أبي ذر »

والله تعالى يقول :

(قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسِهم لا تقنطوا من رحمةِ الله، إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم)

* * *

وقد تعلمت الأمة من نبيها القدوة ، صلى الله عليه وسلم ، ما ترجم به ضعف البشرية ، وتتقي محنة القنوط وفتنة تقديس البشر وتنزيههم عن الخطأ ، وادعاء الكمال لهم ، وذلك ما لا يكون إلا لله وحده .

سأل « قتادة » أنسَ بن مالك : أي دعوة كان يدعو بها النبيُّ صلى الله عليه

وسلم أكثر ؟ قال أنس : كان أكثر دعوة يدعو بها يقول :

(اللهم آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسَنةً وقِنا عذابَ النار) الآية .

ومن مأثور دعائه صلى الله عليه وسلم :

« اللهم إن محمداً بشر يغضب كما يغضب البشر ، فأيما مؤمنٍ آذيتُه أو سببتُه أو جلدتُه ، فاجعلْها له كفارةً وقربة تقربه بها إليك يومَ القيامة » .

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنتَ رب المستضعفين وأنتَ ربي ، إلى مَن تَكلُني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري ؟ إن لم يك بك عليّ غضب فلا أبالي،ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بك بنورِ وجهك الذيأشرقت له الظلماتُ وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة ، من أن تَنزل بي غضبَك أو يحلَّ عليّ سخطُك . لك العُتْبى حتى ترضى ، ولا حولَ ولا قوة إلا بك »

(صحيح مسلم ، والسيرة لابن هشام ٢/٦٠)

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذابِ القبر ومن فتنةِ المَحيا والمَمات »

وسأله أبو بكر الصديق: يا رسول الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي . فقال عليه الصلاة والسلام :

« قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم »

ومن دروسه ، صلى الله عليه وسلم ، لأمته :

« إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألْحَنَ بِحُجتّه من بعضٍ فأقضي له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيتُ له بشيءٍ من حق أخيه فلا يأخذنّ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من نار »

وقال له رجل من الصحابة :

– يا رسول الله ، إنك لستَ مثلَنا ، قد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« والله ِ إني لأرجو أن أكونَ أخشاكم للهِ وأعلمكم بما أتقي »

« إنه لَيُغانُ على قلبي – ما يتغشاه من غفلة عن الذكر – وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »

***

وفهمنا لهذه البشرية السويّة وما يجوز عليها من نقص وخطأ وضعف ، يريحنا من أزمة تعقد شخصيتنا بين ما نحرص عليه من تقوى وطاعة وتطهر ، وما نتورط فيه من إثم ومعصية .

ولعله كذلك يرد على بهتان المستشرق اليهودي « جولدتسيهر » فيما زعمه من عناصر وثنية حملَهَا زوراً على الإسلام جملةً ، ثم كان الكلام كله عن بعض الغلاة من الفرق ، وبعض المظاهر الشعبية في احترام الأولياء ، يؤولها بالتقديس والتنزيه والتأليه والعبادة ، ويردها إلى ميراث العقائد الوثنية ، مع إقراره بمناقضتها لفكرة الألوهية في الإسلام . قال فيما قال :

« وهكذا بقيت الوثنية السورية القديمة في أودية لبنان في شكل ظاهرُه إسلامي ، وذلك في فرقة النصيرية التي يغلب على مذهبها أفكار وعقائد لا شك في وثنيتها . وبعبارة أوضح ، يمكننا أن نقول إن الآراء التي أدخلها الإسلام في هذه البلاد ، تبدو كأنها ممتزجة بالعناصر الوثنية القديمة ، فليس لها من الإسلام سوى المظهر . وأن الروح العامة لهؤلاء الأقوام قد احتفظت في الواقع بالتقاليد الوثنية التي كانت لأجدادهم ، وإنْ غيَّرتها من الناحية الظاهرية البحتة . وفي هذا المزيج من الوثنية والغنوصية والإسلام ، لم يزد ما أضافه الإسلام على أن يكون صورة مباينة لما سبقه ، قد فرضها فرضاً على العبادة الوثنية القديمة . كما أنه أطلق أسماء جديدة على الأفكار القديمة التي للوثنية ...

« ويتألف من محمد ومن علي وسَلْمان ، ثالوث من الآلهة : به كل الزوائد المتعلقة بالعبادة الوثنية لمظاهر الطبيعة ... وقد تم هذا التحوير بسبب

عليٍّ وذريته وكذا الأئمة ، ما يدل على عبادة السماء والشمس والقمر وسائر الغنوصية التي اجتازت كل هذه البقايا الوثنية وتخطتها ...

« ولنحجم هنا عن الدخول في تفصيلات المساجـلات الدينية — مع المتشددين من الحنابلة — مقتصرين على ذكر مثال واحد هو أقرب من سائر الأمثلة الأخرى لصميم الحياة الدينية في الإسلام : نشأ في الإسلام بتأثير عدة عوامل ، بعضها بسيكولوجي والآخر تاريخي ، شكل من أشكال العبادة . وهذا الشكل ، مهما عُد مناقضاً لفكرة الألوهية للإسلام ومهما اعتبر خارجاً عن جادة السنة الصحيحة ، سرعان ما اكتسب حقوقه المدنية في دولة الإسلام الشاسعة. ويعتبر عند كثير من طوائف المسلمين وجماعاتهم ، أعظم خطراً وأعلى قدراً من جوهر الدين الإسلامي ذاته . وهو الصورة الصحيحة التي يتجلى فيها الإيمان الشعبي . وهذا الإيمان الساذج يرى أن الله بعيد عن الناس ، وأن الأولياء المحليين هم أدنى إلى نفوسهم وقلوبهم ، وهم لهذا موضع التكريم في عباداتهم ، كما أنهم مبعث مخاوفهم ومعقد آمالهم ومحل تبجلهم وورعهم . وأضرحة هؤلاء الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى المتصلة بها ، هي مواضع عباداتهم التي يرتبط بها أحياناً ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات . بل إن العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبـــادة المحضة (؟ !) ... إذ أنه يوجد في أغلب مظاهر هذا التقديس ، بقايا الديانات التي قهرها الإسلام وقضى عليها ، وهذه البقايا تتفاوت في مداها وفي وضوح الشكل الذي انتقلت إليه وقوته »[1] .

ما أجرأ البهتان :

النصيرية صارت هي الإسلام ، على إطلاقه ؟

---

(١) جولدتسيهر : تاريخ العقيدة والشريعة في الإسلام : ٢٢٠ : ٢٢٣ من الترجمة العربية . ط دار الكاتب المصري بالقاهرة .

الإسلام « أطلق أسماء جديدة على الأفكار الوثنية » ؟

وكأن التاريخ لا يشهد أن الإسلام دين التوحيد المحض ، وكأن لم تسمع الدنيا ، على مدى أربعة عشر قرناً ما تلا نبي الإسلام من كلمات ربه :

(قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا)

(قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك)

(قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثَرتُ من الخيرِ وما مسّنيَ السوءُ ، إنْ أنَا إلا نذيرٌ وبشير لقوم يؤمنون)

(يا أيها الناسُ ضرِبَ مثَلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً وإن اجتمعوا له ، وإن يسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُف الطالبُ والمطلوب)

وتقديس الأولياء أخذ شكل عبادة ، أعظم خطراً عند كثير من طوائف المسلمين وأعلى قدراً من جوهر الدين الإسلامي ذاته ، وأضرحتهم موضع عبادة ، يُظهر فيها العامة تقديساً وثنياً غليظاً ؟

ما من مسلم في الدنيا لا يتلو من كتاب دينه :

(قل هو اللهُ أحَد) (إياك نعبدُ وإياك نستعين)

والعامة يعبدون الله حيثما كانوا ، لا يعبدون إلا إياه ، ويعتقدون ويؤمنون ويشهدون بأن محمداً عبده ورسوله .

وإيمانهم الساذج يرى أن الله بعيد عن الناس ؟

إن أي مسلم في الدنيا ، يستقبل ما يستقبل من أمره وهو يقول : « الله معنا » وأشد المؤمنين سذاجة ، يودع ابنه أو أخاه فيقول له : الله معك !

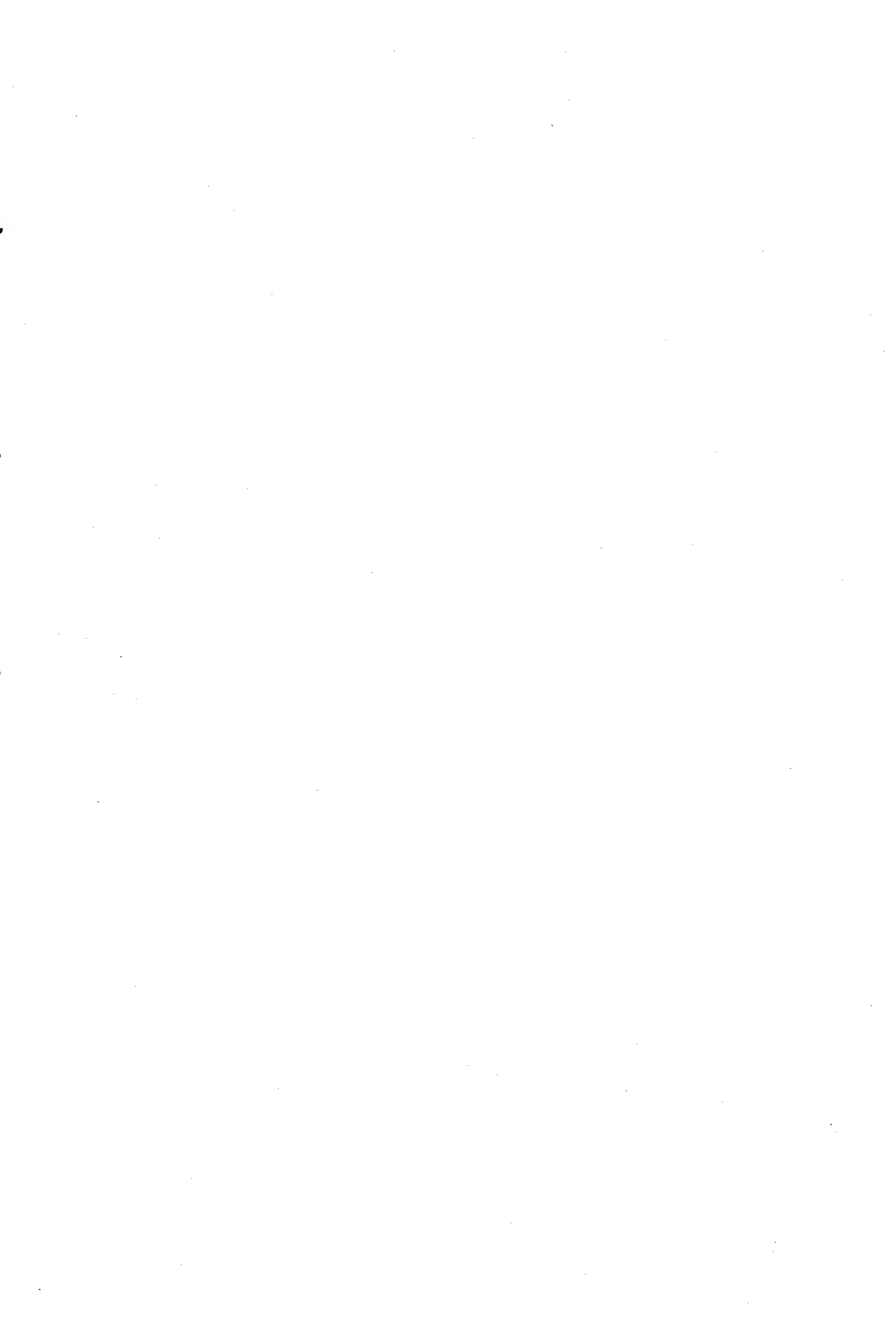
وفي كل ديار الإسلام ، يصغون خاشعين إلى ما يُتلى عليهم من كلمات ربهم :

(وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ فلْيستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يَرشُدون)

(إن اللهَ مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون)

وصدق الله تعالى :

(فإنها لا تَعمي الأبصار ولكنْ تَعمي القلوب التي في الصدورِ)



المبحث الثالث :

بين المادية والروحية

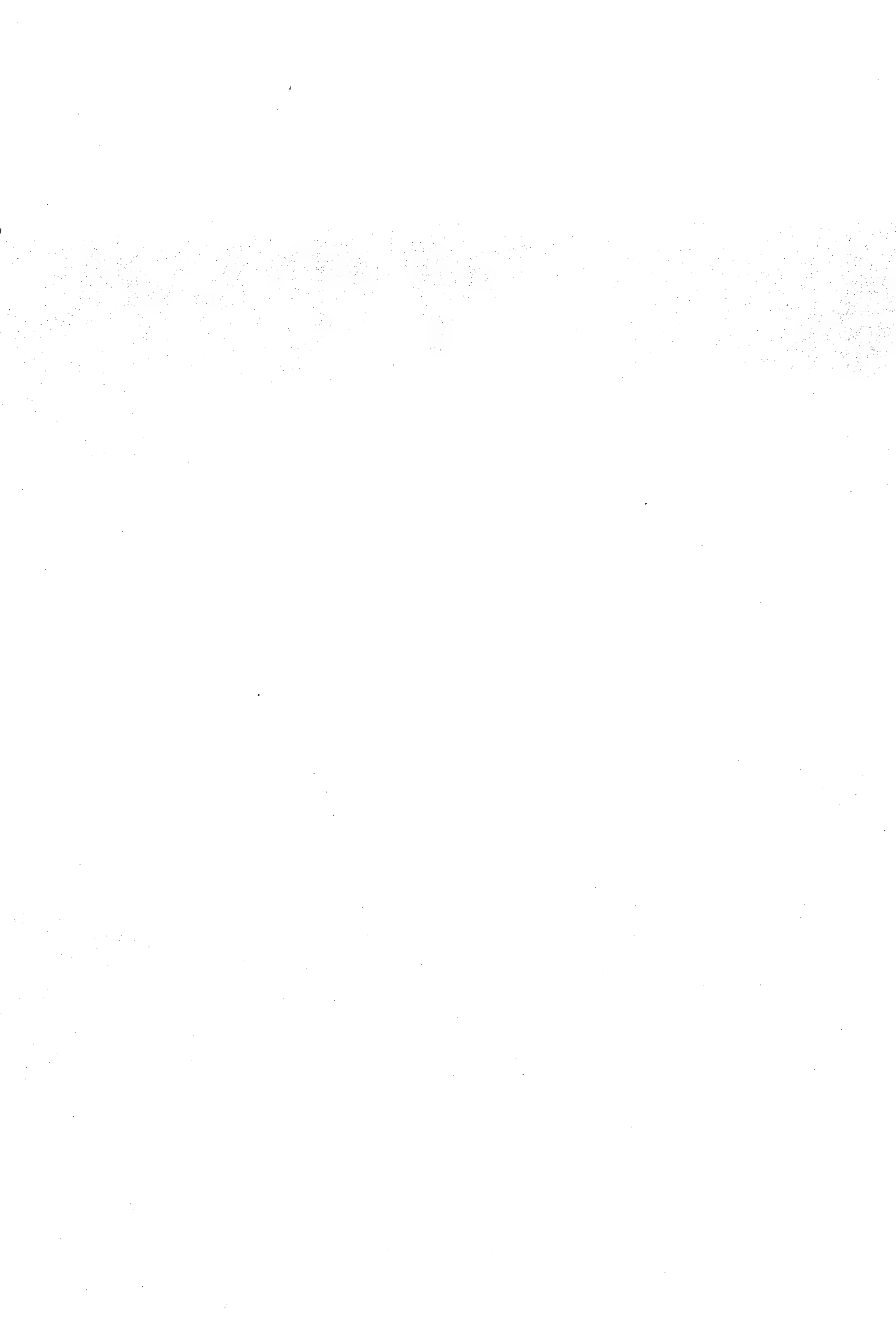
(وابتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا)

قرآن كريم

« البسْ ما شئتَ ، ما أخطأكَ سَرَفٌ ومَخيلة »

« إن اللهَ يُحبُّ أن يرى أثرَ نعمتِه على عبدِه »

محمد ، رسول الله



رسوخ فهمنا لبشريتنا السوية ، يجلو موقفنا بين المادية والروحية ، تصحيحاً لما شاع فينا من أن الإسلام يريد للمؤمنين أن يقهروا بشريتهم المادية ، ويروضهم على التجرد الروحي والزهد فيما تتعلق به فطرة الناس من متع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق .

من هَدْي القرآن والسنة ، أتعلم أن الإسلام لا يشق على أمته بهذا التجرد الصارم يتحدى طبيعة البشر فينا ، والزهدِ المنقطع يعزل الأمةَ عن صراع الوجود والبقاء .

وأولُ ما يتقرر من ذلك، إبطالُ الإسلام للرهبانية التي عزلت الدينَ عن الحياة ، وما كُتِبتْ على مَن قبلنا إلا ابتغاء رِضوانِ الله . وإذا كان في رهبان المسيحية مَن تحملوها مجاهدة وإيماناً ونذروا أنفسهم لخدمة الله فإنها آلت إلى أنماط وطقوس كلِّفت من ابتدعوها سلوكاً حَرِجاً مُرهقاً، فما رعَوها حقَّ رعايتِها ، وضل منهم كثير كانوا فتنة للناس :

(وقفَّينا بعيسَى بنِ مريمَ وآتيناه الإنجيلَ وجعلْنا في قلوبِ الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فما رعَوها حقَّ رعايتِها فآتيْنا الذين آمنوا منهم أجرَهم وكثيرٌ منهم فاسقون) .

الحديد : ٢٧

ويُثني كتابُ الإسلام على المتقين من رهبان المسيحية أطيب الثناء . لكيلا نأخذهم بضلال الفاسقين :

(لَتَجِدن أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ، ولَتجِدَنَّ أقربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ؛ ذلك بأن منهم قسيسين ورُهبانا وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أُنزِل إلى الرسولِ ترى أعينَهم تَفيضُ من الدمع مما عرَفوا من الحق ، يقولون ربَّنا آمَنَّا فاكتبْنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمنُ باللهِ وما جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يُدخلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين »

المائدة ٨٢ : ٨٣

لكنه يذكر معهم أولئك الذين ضل بهم الناس كما ضلوا بالأحبار من يهود :

(اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دونِ الله)

(يا أيها الناس إن كثيراً من الأحبار والرهبانِ لَيأكلون أموالَ الناسِ بالباطلَ ويصدون عن سبيلِ الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)

التوبة ٣١ : ٣٢

ولقد ظلت البشرية المتدينة تعاني من هؤلاء الذين زيَّفوا الرهبانيةَ قناعاً للفسق ومصيدة لاستنزاف الناس وحجاباً على عقولهم ، وتسلطوا على عباد الله بكهنوتية عاتية وأَدَتْ روح الإنسان وأطفأت فيه قبسَ النور ، فجرَّت إلى الإلحاد الذي يرده التاريخ الحديث إلى أقرب أسبابه في محنة روسيا المسيحية براهبها الفاجر « راسبوتين » وعصابته .

الإسلام أبطل هذه الرهبانية . كما أسقط عنا إصر الكهنوتية والأغلال . والتفت إلى حاجة البشرية فينا . فلم يفرض على رسوله وأمته الزهدَ في زينة الدنيا الحلال . بل أمره أن يبتغي فيما آتاه اللهُ الدارَ الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا :

(وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرَة ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا ، وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليك ...)

القصص : ٧٧

الإسلام عدو الترف والسرف والبطر والخيلاء ، وقد أعطى أمته العبرة بمصاير أمم قبلها أفسدها الترف وكان فيها ذريعة فسق وفجور ، وضلال وهلاك [1] .

وتكرر في القرآن التنبيهُ إلى أن متاع الدنيا عرض زائل ، كبحاً لغرورنا بها ، وتوجيهاً إلى ما هو خير وأبقى من زاد الإيمان والتقوى والعمل الصالح :

(كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ، وإنما تُوَفَّون أجورَكم يومَ القيامة، فمنْ زُحزِحَ عن النارِ وأدخِلَ الجنةَ فقد فاز ،وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور)
آل عمران : ١٨٥

(اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثَلِ غيثٍ أعجب الكفارَ نباتُه ثم يَهيجُ فتراه مُصفَرّاً ثم يكونُ حُطاماً، وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ ، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور)

الحديد : ٢٠

وإذ يحمينا الإسلام من ضراوة الشَّرَه وعبودية الشهوات ووثنية المادية ، يوسِّع علينا فيما أحلَّ الله لنا من طيبات الدنيا وزينتها الحلال :

(قلْ من حَرَّم زينةَ اللهِ التي أخرج لعباده والطيباتِ من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة، كذلك نُفصل الآيات لقوم يعلمون * قلْ إنما حرَّم ربي الفواحشَ ما ظهر منها وما بَطنَ والإثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأن تشركوا باللهِ ما لم يُنزِّلْ به سُلطاناً وأن تقولوا على اللهِ ما لا تعلمون »

الأعراف ٣٢ : ٣٣

---

(١) انظر آيات : سبأ ٣٤ ، الإسراء ١٦ ، الأنبياء ٩ – ١٥ ، المؤمنون ٦٤ – ٦٧ الواقعة ٤٥ .

وتكرر هذا التقرير لمبدأ الدين : تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ، في عدد من الآيات المكيات [1] ، مع الاعتبار بما ضرب الله لنا مثلاً : « قرية كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ فكفرت بأنعُمِ اللهِ عليها فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعونَ * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * فكُلوا مما رزقكم اللهُ حلالاً طيباً واشكروا نعمة اللهِ إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرَّم عليكم الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزير وما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به، فمن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم. »

ومن أوائل العهد المدني، زادت العنايةُ بتفصيلِ الحلالِ والحرام من الطعام والشراب ، إذ كان اليهود ناشبين في شمالَ الحجاز ، يمارسون طقوساً من ميراثهم القديم قبل نزول التوراة ، ويدسُّون منه إسرائيليات في الفهم الديني ، بما هم أهلُ كتاب . فكان التوجيه القرآني للمسلمين ، ليحذروا من جدل اليهود ومفترياتهم ولا يحرموا إلا ما حرَّم اللهُ ورسولهُ، وليعلموا أنه بني إسرائيل حرموا الحلالَ افتراءً على الله ، فحرَّمه عليهم بظلمِهم وغدرِهم وشرهم :

(يا أيها الناسُ كُلوا مما في الأرضِ حلالاً طيباً ولا تبتغوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدوٌّ مبين. إنما يأمركم بالسوءِ والفحشاءِ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

البقرة ١٦٨ ، ١٦٩

(يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون* إنما حرَّم عليكم الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرَ وما أُهِلَّ به لغيرِ الله، فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفورٌ رحيم* إنَّ الذين يكتمون ما أنزل اللهُ من الكتابِ ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النارَ) .

البقرة ١٧٢ : ١٧٦

---

(١) انظر آيات : الأعراف ١٥٧ ، الأنعام ١١٩ - ١٢١ ، ١٤٥ - ١٤٨ ، النحل ١١٢ - ١١٥

(كلُّ الطعامِ كان حِلاً لبني إسرائيلِ إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسِه من قبلِ أن تُنَزَّلَ التوراةُ ، قل فأتُوا بالتوراةِ فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على اللهِ الكذبَ من بعدِ ذلك فأولئك هم الظالمون)

آل عمران : ٩٣ — ٩٤

(فبظلمٍ من الذين هادُوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحلّتْ لهم ، وبصدِّهم عن سبيلِ الله كثيرا * وأخذِهم الربا وقد نُهُوا عنه وأكلِهم أموالَ الناسِ بالباطلِ ، وأعتَدْنا للكافرين منهم عذاباً أليما)

النساء : ١٦٠ — ١٦١

وفي أواخر عصر المبعث ، نزلت بعرفاتَ في حجةِ الوداع ، آيـــة البشرى بإكمال الدين وتمام النعمة [١] ، فكان من اللافت أن نصت الآية على المحرمات من الخبائث بهذا التفصيل :

(حُرِّمتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكلَ السبعُ إلا ما ذكّيتم وما ذُبح على النصُبِ وأن تستقسموا بالأزلام ، ذلكم فسقٌ ، اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشَوهم واخشونِ ، اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا ، فمن اضطرَّ في مَخمصةٍ غيرَ متجانِفٍ لإثمٍ فإن الله غفورٌ رحيم)

المائدة : ٣

---

(١) هذا هو المشهور في نزول هذه الآية (المائدة ٣) وقد اختاره الإمام الطبري في تفسيره للآية ، ونقل فيه ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف على الجبل يوم عرفة — في حجة الوداع — فلا يزال ذلك اليوم عيداً للمسلمين ما بقى منهم أحد .

ونزلت بعدها بالمدينة ، سائر آيات المائدة ، ثم سورة التوبة ، فسورة النصر الخاتمة للوحي .

وهي متلوة مباشرة ، بقوله تعالى : (يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم ، قل أُحِلَّ لكم الطيباتُ ..)

آية المائدة : ٤

فنفهم من سؤال الصحابة حينئذ عما أُحِلَّ لهم ، أنهم كانوا ما يزالون في حاجة إلى هذا التقرير لما يحل لهم من طعام وشرابٍ وما يحرم عليهم وقد نزلت معها بالمدينة من آيات المائدة :

(يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا ، إن اللهَ لا يُحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون)

٨٧ — ٨٨

(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عملَ الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تفلحون * انما يريدُ الشيطانُ أن يوقع بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويصدَّكم عن ذكرِ اللهِ وعن الصلاةِ فهل أنتم منتهون * وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذروا، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين)

٩٠ — ٩٢

***

وليس صحيحا ما يغلب على الظن من أن العناية بالمظهر لباساً وزينة ، يجافي شخصية المسلم . وما يجافيها فيما تعلمت من الكتاب والسنة إلا الترف والسرف ، والتبرج والخيلاء . فإذا اتقاها المؤمن ، فلا حرج عليه في أن يُعنى بمظهره ويأخذ زينته تجملاً وتهذيباً ، لا عن شهرةٍ وخيلاء .

بل إن هذه الزينة مفروضة عند الخروج إلى كلّ مسجد، بصريح الأمر في آية الإعراف :

(يا بني آدمَ خذوا زينتَكم عندَ كلِّ مسجدٍ وكلُوا واشربوا ولا تُسرِفوا ، إن اللهَ لا يحب المسرفين * قلْ مَن حرَّم زينةَ الله التي خرج لعباده والطيبات من الرزق) ... ٣١ — ٣٢

ونفهمُ من توجيه الأمر بأخذ الزينة إلى « بني آدم » دلالـَة العموم المطلق. ويكون « كل مسجد » عاماً كذلك في دور العبادة ، ملتقى المتدينين ومجتمعهم.

وسياق السؤال : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعبـــاده) يعطيه كذلك دلالة العموم ، مع الطيبات من الرزق ، غير الخبائث المنصوص عليها في الآية ، وفي آيات أخرى سبق ذكرها .

ونستأنس بهذه الآية في فهم حديث (الموطأ) عن يسار بن عطاء ، قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية ، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، أن اخرجْ .

كأنه يعني إصلاحَ شعرِ رأسه ولحيته . ففعل الرجل ثم رجع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدُكم ثائرَ الرأس كأنه شيطان ؟ »

وفي السنة النبوية تفصيل وافٍ لأحكامِ اللباس الإسلامي والزينة والطيب . ما يحل منها وما يندب ويستحسن وما يجوز ، أو يكره أو يحرم .

وهي جميعاً تدخل في عموم المبدأ :

كل طيب حلال ونعمة

وكل خبيث حرام ونقمة

وثابت من صحيح الحديث ، النهي عن الشرب والأكل من آنية من ذهب أو فضة ، وسائر مظاهر الترف والسرف والخيلاء .

عن أم المؤمنين « أم سلمة » قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَن شرب في إناء من ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر في بطنه ناراً من جهنم » .

ومن حديث جابر بن عبد الله ، في كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« فراشٌ للرجل ، وفراش لامرأته ، والثالثُ للضيف ، والرابع للشيطان » .

وفي حديثٍ رواه الإمام مالك وأخرجه البخاري ومسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَن يجر ثوبه خيلاء »

فيروى أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، إن أحد شِقَّيْ إزاري لَيسترخي ، إلا أن أتعاهد ذلك منه » .

فقال صلى الله عليه وسلم لصاحبه الصديق :

« لست ممن يصنعه خيلاء »

ومعه أحاديث كثار ، في عقوبة « مَن لبس ثوبَ شهرة » ولعنة التبرج ، والمتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال .

وقد حُرِّم على الرجال التحلي بالذهب ، ولبس الديباج والحرير ، وإنما ذلك للنساء في حدود التصون .

وفي (كتاب الزينة واللباس) من (صحيح مسلم) من حديث عبد الله ابن عمر ، أن عمر بن الخطاب رأى حُلَّة سيَراء — مضلعة بالحرير كأن خطوطها شبِّهت بالسيور — معروضة في سوق المدينة للبيع . فقال عمر : يا رسول الله ، لو اشتريتَ هذه فلبستها للناس يوم الجمعة ، وللوفد إذا قدموا عليك ؟

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« إنما يلبَس هذه مَن لاخلاقَ لهم في الآخرة » .

ثم جاءت رسولَ الله حُلل من هذا الصنف ، فبعث إلى عمر بواحدة ، وإلى أسامة بن زيد بأخرى ، وأعطى عليَّ بن أبي طالب حلة وقال : « شقّقْها خُمُراً بين نسائك » .

أما عمر فجاء بحلته يحملها ، فقال :

يا رسول الله ، بعثت إليَّ بهذه ، وقد قلتُ بالأمس ما قلتَ ؟

فقال : عليه الصلاة والسلام « إني لم أبعث بهـا إليك لتلبسها ، ولكني بعثت بها إليك لتصيب بها نفعاً » .

وأما أسامة بن زيد ، فراح في حلته . فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نظراً عرف منه أسامة أنه أنكر ما صنع ، فقال : يا رسول الله ، ما تنظر إليَّ ؟ فأنت بعثت إليَّ بها .

فقال صلى الله عليه وسلم : « إني لم أبعث بها إليك لتلبسها ، ولكني بعثت بها إليك لتشققها خمُراً بين نسائك » .

وعن عبدالله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل ، فنزعه فطرحه وقال :

« يعمَد أحدُكم إلى جَمرةٍ من نار فيجعلها في يده » !

فقيل للرجل ، بعد أن ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ خذ خاتمك فانتفع به .

قال : لا والله ، لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

على أن لبس الحرير أبيح للرجال لضرورةٍ صحية، كحَكَّةٍ في الجلد يؤذيها خشنُ الثياب . وتخضع هذه الإباحة لمبدأ: الضروراتُ تبيح المحظورات: (فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه) .

ولُعنت « الكاسيات العاريات ، المميلات المائلات ، المتفلجات بالحسن المغيرات خلق الله »

ولُعِنتْ معهن الواشمات والمستوشمات ، والواصلات شعورهن بشعر مستعار . وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يسميه : الزُّور .

* * *

ووراء ذلك المحظور والمكروه ، سعةٌ في كل زينةٍ حلال، وكلٍّ الطيبات من الرزق .

ونبي الإسلام ، المعلم القدوة ، فيما ابتغى من الدار الآخرة ، لم ينس نصيبه من الدنيا :

تزوج وأحب ، وقرَّت عينه بابنته الزهراء ، وسبْطيه الحسن والحسين ،

وحفيدته زينب . بعد أن ثكل ولديه عبدَ الله والقاسم ، وبناته زينب ورقية وأم كلثوم ، ثم ولده ابرهيم ، عليهم السلام .

وكان يحب العسل ، ويستطيب الذراعَ من لحم الشاة . وفي السيرة النبوية خبرُ اليهودية التي حاولت أن تسمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد النصر على يهود خيبر . سألتْ بعض الصحابة : أي عضو من الشاة أحبُّ إلى النبي ؟ قيل لها : الذراع . فجاءت بشاة أكثَرتْ السمَّ في ذراعها، ثم قدمتها هدية إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليمة النصر : (١)

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ، ويراه جميلاً للرجال . وللنساء ما بقين في بيوتهن ، فإذا خرجن ، فلا . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال للصحابيات : « إذا شهدتْ إحداكن المسجدَ، فلا تمس طيباً » .

وقد أوصى بالطيب في جهاز بناته عليهن السلام، وكان يرى عندَ أم المؤمنين « أم حبيبة بنت أبي سفيان » ما حملتْه معها من طيب الحبشة وعودِها، فلا ينكره (٢) .

وفي (صحيح البخاري) من حديث السيدة عائشة ، أم المؤمنين ،أن زوجها المصطفى كان يرجل شعره أو ترجله له . وفي (الموطأ) أن أبا قتادة الأنصاري سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لي جُمّة ، أفأرجِّلُها ؟

فقال : نعم ، وأكرمْها .

فكان أبو قتادة ربما رجَّلها في اليوم مرتين ، إكراماً لها .

---

(١) السيرة لابن هشام : ٣ ٣٥٥. وفيها أن النبي صلى الله عليه وسلم وتناول مضغة من الذراع فلم يسغها ، بل لفظها ـهو يخبر أن اللحم مسموم . أما صاحبه « بشر بن البراء » فأكل من الشاة غير مستريب ، فمات لساعته .

(٢) ابن حجر : الإصابة ترجمة أم المؤمنين « أم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان . وتاريخ الطبري : ٨٩/٣ ط مصر .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام :

« البس ما شئتَ ، ما أخطأك سرَفٌ ومَخيلة »

« إن الله يحب أن يَرى أثرَ نعمتِه على عبده » .

وفي (سنن النسائي) أن أعرابياً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرآه رثَّ الثياب ، فسأله :

« ألك مال ؟ »

قال الرجل : نعم ، من كل مالٍ قد آتاني الله .

فقال عليه الصلاة والسلام :

« فإذا آتاك الله مالاً ، فلتُرِ أثرَ نعمتِه عليك وكرامته » .

وكان ، صلى الله عليه وسلم ، على فرط تواضعه ، يتجمل في لباسه ومظهره ، ويحب لأصحابه أن يفعلوا عند المسجد ، وبخاصةٍ في صلاة الجمعة قال :

« ما على أحدِكم لو اتخذ ثوبين لجمعتِه ، غير ثوبي مهنته ؟ » .

وفي (كتاب الإيمان) من صحيح مسلم ، الحديث عن عبدالله بن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال :

« لا يدخل الجنة مَن في قلبه ذرة من كبر » قال رجل ، من الصحابة : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . فقال صلى الله عليه وسلم :

« إن الله جميل يحب الجمال . الكبر : بطرُ الحق ، وغمطُ الناس » يعني التجبر وازدراء الناس .

***

وكره لهم جفوة الطبع ، وعدم الترويح عن القلوب .

فقال : « أريحوا القلوب تعِ الذكر » .

وفي صحيح الحديث عن السيدة عائشة أم المؤمنين ، أن أباها الصديق دخل

عليها وعندها جاريتان ، في أيام منى ، تغنيان وتضربان — على الدف — فانتهرهما وقال : مزمار الشيطان في بيت رسول الله ؟

فأقبل عليه المصطفى — وكان بثوبه مُغطّى فقال : — دعْهما .

تقول السيدة عائشة :

« وكان يوم عيد يلعب فيه السودان — من الحبشة — بالدرَق والحِراب . فإما سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما قال : « تشتهين تنظرين » ؟ فقلت : نعم . فأقامني وراءه ، خدّه على خدّي ، وهو يقول : « دونكم يا بني أرفدة » — لقب للحبشان — حتى إذا مللتُ قال : حسبك ؟ قلت : نعم » .

وعن أبي هريرة : بينما الحبشة يلعبون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بِحِرابهم ، إذ دخل عمر بن الخطاب فأهوى إلى الحصباء يحصبهم بها. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« دعهم يا عمر ، فإن اليوم يوم عيد »

وفي (باب خِضاب الشعر) من السنة ، يُستحب خضابُ الشيب بصفرة أو حمرة ، ويكره السواد . ويروون في ذلك الحديث عن جابر بن عبدالله ، قال : أُتيَ بأبي قحافة — والد أبي بكر الصديق — يومَ فتح مكة ، ورأسُه ولحيته كالثغام — نبت أبيض الزهر والثمر — بياضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« غيّروا هذا بشيء ، واجتنبوا السواد » .

وكان من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ، من يصبغون شعرهم. وفي (الموطأ) أن عبد الرحمن بن الأسود عبد يغوث ، خرج يوماً وقد حمّر رأسه ولحيته . فقال له القوم : هذا حسن . فذكر لهم أن أم المؤمنين السيدة عائشة هي التي أرسلت إليه أن يصبغ ، وأخبرته أن أباها الصدّيق كان يصبغ .

وفي (تاريخ الطبري) عن خالد بن أبي بكر ، قال : « كان عمر بن الخطاب يصفّر لحيته ويرجل شعره بالحناء » .

وسئل « الإمام مالك » في الخضاب باللون الأسود فقال :

« لم أسمع في ذلك شيئاً معلوماً ، وغيرُ ذلك من الصبغ أحبُّ إليَّ »

ثم أضاف : « وترك الصبغ كله – يعني لونه – واسع إن شاء الله ، ليس فيه على الناس ضيق » .

* * *

وتعلم الصحابة، في مدرسة النبوة، أن مِن شُكْر نعمة الله على عباده . أن تُرى آثارها عليهم ، فكان عمر بن الخطاب ، على زهده ، يقول :

« إذا أوسع اللهُ عليكم فأوسعوا على أنفسكم » .

وسئل الإمام مالك في الملاحف المعصفَرة يلبسها الرجل في البيوت والأفنية، فقال :

« لا أعلم من ذلك شيئاً حراماً ، وغيرُ ذلك من اللباسِ أحبُّ إليَّ » – الموطأ ويذكر مؤرخوه في مناقبه ، أنه كان لا يجلس للحديث والفتيا إلا إذا توضأ وتطيب وتجمل بأفضل ثيابه .

وروى « التاج السبكي » خبر الإمام الشافعي لما شخَص إلى « سرَّ مَن رأى » وقد طال شعره ورث زيه من وعثاء السفر ، فكره أن يلقى الناس هكذا ، وتقدم إلى مزين ، فاستقذره لما نظر إلى زيه ، وقال له : امض إلى غيري .

فاشتد على الشافعي أمره ، فالتفت إلى غلام كان معه ، فسأله : « إيش معك من النفقة » ؟

ردَّ الغلام : عشرة دنانير .

فقال الشافعي : « ادفعها إلى المزيِّن » [1] .

---

(١) طبقات الشافعية ، للسبكي : ١٦٠/١ ط أولى ومنها ، في الجزء الأول ، ما يأتي بعد ، عن الإمام الشافعي .

وكان له شغف بالرماية ، وقد بلغ فيها ما بلغه في العلم . قال :

« كانت همتي في شيئين : الرمي ، والعلم ، فصرتُ في الرمي بحيث أصيب عشرة من عشرة » .

ولما أمره الطبيب بترك الرماية ، رعاية لصحته ، كان إذا مر بساحة الرمي وقف يريح قلبه بالنظر إلى الرماة وتشجيعهم . يذكرون أنه مرَّ بالساحة ، ومعه تلميذه المزني . فإذا رجل يرمي بقوس عربية ، فيجيد الرمي . قال له الشافعي : أحسنت ، بارك الله فيك . ثم سأل تلميذه المزني : أمعك شيء ؟ قال : معي ثلاثة دنانير . فقال له : « أعطِه إياها ، واعتذر عني عنده ، أني لم يحضرني غيرها » .

ومن رقيق شعره :

يا كاحلَ العينِ بعدَ النوم بالسهـر
ما كان كُحْلُك بالمنعوتِ للبصـرِ

لو أن عيني إليك الدهرَ ناظـرةٌ
حانت وفاتي ولم أشبعْ من النظـر

سُقياً لدهرٍ مضى ، ما كان أطيبَه
لولا التفرقُ بالتنغيص والسفـرِ

إن الرسولَ الذي يأتي بـلا عِدَةٍ
مثل السّحاب الذي يأتي بلا مطـر

ويروون من خبره ، أنه كانت له جارية يحبها ، ولا يجد عندها استجابة . فقال :

أليس شديداً أن تحب فـلا يحبك مَن تحبه ؟

وعقبت عليه قائلة :

ويصدُّ عنـك بوجهـه وتُلحُّ أنتَ فـلا تغبـه

ونقل « السبكي » في (الطبقات الكبرى) خبر الفتوى المشهورة : جاءه شاب برقعة فقرأها ، ووقع عليها بفتواه . وكان تلميذ الشافعي « الربيع بن سليمان المرادي الجيزي » حاضراً ، فتتبع الشاب يريد ألا تفوته فُتيا لشيخه ، فأخذ الرقعة فقرأها ، فإذا فيها :

سَل المفتيَ المكيَّ ، هل في تزاور
وضمَّةِ مشتاقِ الفؤادِ ، جُنـاحُ ؟

وإذا توقيع الشافعي تحتها :

فقلتُ معاذَ اللهِ أن يُذهِبَ التقى
تَلاصُقُ أكبـادٍ بهـنَّ جـراحُ

وعاد الربيع إلى شيخه ، فسأله متعجباً ، أو منكراً : يا أبا عبد الله ، تفتي بمثل هذا ، لمثل هذا الشاب ؟

ورد الشافعي :

« يا أبا محمد ، هذا هاشمي قد أعرس في هذا الشهر – يعني : رمضان – وهو حدث السن ، فسأل : هل عليه جناح أن يقبل أو يضم ؟ فأجبته بهذا »

وفي (الكامل ، للمبرد) خبر الصحابي الجليل « ابن عباس » حين دخل عليه « عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة » وهو يومئذ غلام . فاستنشده ابن عباس ، وفي المجلس « نافع بن الأزرق » يسأله في غريب القرآن . فأنشد عمر رائيته المشهورة :

أمِنْ آل نُعمٍ أنت غادٍ فمُبكِّرُ
غداةَ غدٍ أم رائح فمُهجِّـر

فطرب لها ابن عباس ، وتركه ينشد حتى أتمها ، وهي ثمانون بيتاً ، فأنكر ذلك نافع بنُ الأزرق وقال :

– للهِ أنتَ يا ابن عباس ، أنضرب إليك أكبادَ الإبل نسألك عن الدينِ

فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه ؟

فقال ابن عباس ، مدافعاً عن عمر : تالله ما سمعت سفهاً [1] .

ويأتي « أبو العلاء المعري » . بحسّانَ بنِ ثابت في جنة الغفران، فيَذكُرُ أهلُ المجلس أبياته الغزلية الخمرية ، من همزيته في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كأن سبيئةً من بيتُ راس	يكونُ مزاجُها عسلٌ وماءُ
على أنيابها ، أو طعمَ غضٍّ	من التفاح ، هصّره اجتناء
على فِيها ، إذا ما الليل قلتْ	كواكبُه ، ومال بها الغطاء
إذا ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يوماً	فهنَّ لطيِّبِ الراحِ الفداءُ

ويُسأل حسان : ويحك ، ما استحييت أن تذكر مثل هذا في مِدحتك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

فيقول حسان : « إنه كان أسجَح خُلقاً مما تظنون . ولم أقل إلا خيراً : لم أذكر أني شربت خمراً ، ولا ركبتُ مما حُظِر أمراً . وإنما وصفت ريقَ امرأةٍ ، يجوز أن يكون حلاً لي ، ويمكن أن أقوله على الظن ! ... وما سُمع بأكرم منه صلى الله عليه وسلم : لقد أفكتُ فجلَدني مع مِسطح ، ثم وهب لي أختَ مارية ، فولدتْ لي عبدَ الرحمن ، فهي خالة ولِده « ابرهيم عليه السلام » [2] .

ولعلنا نذكر أن « كعب بن زهير » استهل بردته التي أنشدها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأبيات غزلية :

---

(١) بتفصيل ، في (رغبة الآمل من كتاب الكامل) ج ٧ ط أولى ١٩٢٩ .

(٢) يشير إلى خوض حسان في حديث الإفك على السيدة عائشة بنت أبي بكر ، وكذلك خاض فيه مسطح بن أثاثة ، فجلدا في حد الإفك . والمشهد هنا ، من (رسالة الغفران) ص ٢٣٥ وما بعدها ، من الطبعة الخامسة ، ذخائر العرب .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبـــولُ
مُتَيَّمٌ إثرَها لم يُفدَ مكبولُ
وما سعادُ غداةَ البين إذ رحلت
إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحولُ

ويروون من شعر « عروة بن أذينة » وكان من جِلة عُلماء المدينةَ وكبار الصالحين [1] قصائد في الحب تذوب من رقة وشجو ، كقوله :

إذا وجدتُ أُوارَ الحبِّ في كبدي
أقبلتُ نحو سِقاء الماءِ أبتَرِدُ
هبْني بردتُ ببَردَ الماءِ ظاهـرَه
فمن لِنارٍ على الأحشاء تتقـد

***

قالت ، وأبثثُها سِرِّي وبُحت به
قد كنتَ عنديَ تحت السترِ فاستترِ
ألست تبصر مَن حولي ؟ فقلتُ لها
غطى هواك وما ألقى على بصري

والفقيه المتكلم « أبو سهل الصعلوكي النيسابوري » الذي يعدونه مجدد القرن الرابع — ت سنة ٣٦٩هـ — هو مَن ذكر مؤرخوه أنه تلقى هذين البيتين ، من أحد إخوانه :

تمنيتُ شهـرَ الصومِ لا لعبـادة
ولكنْ رجاءً أن أرى ليلةَ القـدرِ
فأدعو إلهَ الناس دعوةَ عاشـق
عسى أن يريح العاشقين من الهجر

---

(١) أبو عامر ، عروة بن أذينة ، توفي حوالي سنة ١٣٠ هـ ، وروى عنه الإمام مالك . والأبيات من الأمالي (سمط اللآلى ١/١٣٦) والأغاني (١/١٠٥ ساسى) .

فكتب إليه أبو سهل من فوره :

تمنيتَ ما لو نلتَه فسَدَ الهوى
وحلّ به لِلنحينِ قاصمةُ الظهرِ

فما في الهوى طِيبٌ ولا لذةٌ سوى
معاناةِ ما فيه يُقاسي من الهجر

وقد كان في الفقهاء الورعين من يشجيهم الغناء ، ومن يؤلفون الكتب في الحب ، ككتاب (الزهرة) لمحمد بن سليمان بن داود الظاهري — صاحب المذهب — وكتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي ، الأصولي الفقيه .

***

ليست القضية إذن أن نزهد في زينة الله التي جعل لعباده ، وأن نكبت عواطف البشرية فينا ، فيكون أقربنا إلى الشخصية الإسلامية ، من ينسى نصيبه من الدنيا !

بل القضية أن نميز فيها بين حلال وحرام ، بين طيبات وخبائث ، وأن نتقي اللهَ فيما نأخذ منها وما ندع ، ونقاوم فتنة الترف والسرف ، ولعنة الشره وعبودية الشهوة .

وقد فُرض علينا الصيام في شهر رمضان المبارك تراحماً ومجاهدة ورياضة موسمية تتزن بها شخصيتنا بين المادية والروحية ، فلا تُذلنا حاجة ولا تستعبدنا شهوة ، ويهون علينا عند الضرورة ، الصبرُ على الجوع والعطش والحرمان ، ولا يهون علينا التفريط في تكاليف العقيدة والصبرُ على ضيم وبغي ومنكر .

والمؤمنون يصومون ، مع رمضان ، صيامَ التطوع ، ورَعاً ومجاهدة للنفس. ومنهم من يأخذون أنفسهم بالشدة في الزهد في متاع الدنيا ، تعففاً وتقوى ، أو لكونهم في الناس في موضع القدوة . وإنهم ليذكرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ظل يتكىء على وسادة من أدم حَشوُها لِيفٌ . ومن دعائه :

« اللهم اجعل رزقَ آلِ محمدٍ قوتاً » .

فتُحدث زوجه السيدة عائشة أم المؤمنين :

« ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ قدم المدينة ، من بر ثلاثَ ليالٍ تباعاً ، حتى قُبِض » .

« إنْ كنا ، آلَ محمد صلى الله عليه وسلم، لَنمكثُ شهراً ما نستوقد ناراً – لطهي طعام – إن هو إلا التمر والماء » .

« ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما شبع من خبز وزيت في يوم واحدٍ مرتين » .

وقُبض في ثوبين متواضعين : إزاء غليظ مما يُصنع باليمن ، وكساءٍ مُلبَّد.

وفي (كتاب الزهد) من صحيح مسلم :

« قدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين ، فسمعت الأنصارُ فتعرضوا له بعد أن وافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟ »

فقالوا : أجل يا رسول الله .

قال : « فأبشِروا وأمِّلوا ما يسركم . فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم ، فتَنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم » .

واحتاجت الأمة ، بعد اتساع دولتها ، إلى مثل شدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الزهد ، وصرامته في محاسبة عُمّاله على البادرة من مظاهر الترف والسرف ، كيلا يُفتنوا بما شهدوا في قصور الأكاسرة والقياصرة والأباطرة ..

كما احتاجت إلى مثل سلوك الخليفة التقي العادل الزاهد « عمر بن عبد العزيز » ردَّ فعلٍ لما انغمس فيه أسلافهُ ملوك بني أمية من ترف باذخ وسرَفٍ جاوز المدى .

وشهد العصر العباسي الأول ، مع ترف الأمراء والأغنياء وشيوع الملاهي

والحانات ، تطورَ حركة الزهد إلى تصوف يقوم على الرياضة الروحية ومجاهدة جواذب الدنيا . ثم لما استشرى الترف وضربت النفعية وفحشت الطبقية ، احتاجت الحياة الى النمط الفريد لأبي العلاء المعري : فرض على نفسه أقسى ضروب الحرمان ، وقاوم المغريات المادية بمجاهدة تقرب من الاستشهـــاد ، فاحتمل أن يصوم الدهرَ كله ولا يساوم على أمانة ضميره وفكره وكلمته في سوق النفعية والدجل والنفاق ، وكان انسحابه من دنيا الناس احتجاجاً عملياً على نكر العصر ، ورفضاً معلـَناً لفساد المجتمع ...

ما جهل أنه حرَم نفسه مما أحل الله للناس من طيبات الرزق ، لكنه رضي « أن يلقى الله سبحانه وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم والملذات ، فإذا وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد » كما قال في رسالته الأخيرة إلى « داعي الدعاة » الذي أخرج قضية صائم الدهر من نطاق السلوك لتقيٍّ مستعفف يجوع ولا يأكل بضميره وكلمته، إلى جَدَلٍ كلاميٍّ مُعْنِت، ليحمي الأوضاع من خطرِ هذا الموقف الحر والسلوك النبيل ...

وصدَق أبو العلاء :

لـَعَمْري لقد عزَّ المباحُ عليكـــمُ
وهانَ بجهلٍ ما يُصانُ ويُحظَـــرُ

* * *

ويتصل بما بين المادية والروحية ، ما يُظن بالإسلام من غضٍّ من قيمة المال ونفعه ، وأن المسلم المؤمن لا يلقي إليه بالا ..

القرآن حقاً لا يُغرى بالمال ، ليس غضاً من شأنه ، وإنه لكما قال ، من زينة الحياة الدنيا ، والله يمن على عباده بما رزقهم من مالٍ وبنين .

وإنما يقاوم الإسلام فتنة بالمال ، والإنسان مولع به يحبه « حباً جماً » فليس بحاجة إلى من يغريه به ، بل تشتد حاجته إلى التحذير من فتنته ، كيلا يضل ويشقى .

من فتنة المال أنه مدعاة إلى بخلٍ وأثرة وترف وتكاثر ، وذريعة غرور وفجور ومعصية وكفر .

ومن قديم امتحنت البشرية بهذا البلاء، وتتابع المرسَلون، عليهم السلام، يحذرونها من لعنته ، ويحاولون تحريرها من أغلال الوثنية المادية . فمن عصر ما قبل الطوفان :

(قال نوحٌ ربِّ إنهم عَصَوْني واتَّبعَوا مَن لم يزِدْه مالُه وولدُه إلا خساراً).
نوح : ٢١

واستهزأ قومُ مديَن برسول الله إليهم :
(قالوا يا شعيبُ أصلاتُك تأمرك أن نترك ُ ما يعبدُ آباؤنا أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاءُ، إنك لأنت الحليمُ الرشيد) .

هود : ٨٧

(وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) .

سبأ : ٣٤ – ٣٥

* * *

وموقف الإسلام من المال ، كموقفه من سائر ما آتانا الله في الدنيا :
كل طيب منه حلال ونعمة
وكل خبيث حرام ونقمه .

ومسئوليتنا هي أن نميز الحدود، فلا نأخذ المال أخذاً لمّاً لا نفرق فيه بين حلال وحرام .

والأصل في العقيدة الإسلامية أن المالَ مالُ الله (النور : ٣٣) وقد جَعلنا مستخلَفين فيه لنؤدي حقه ونرعى أمانته، فيحقق المال وظيفته الاجتماعية التي وجّه إليها الإسلام ، في الخير والنفع العام :

(آمِنوا بالله ورسوله وأنفِقوا مما جعلَكم مستخلَفِين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ) .

الحديد : ٧

نكسب المال من وجوهه المشروعة حلالاً طيباً ، لا يلهينا عن ذكر الله وتقواه ، ولا نُشغَل به عن تكاليف الجهاد كما شُغل المنافقون :

(يا أيها الذين آمنوا لا تُلهِكم أموالكم ولا أولادُكم عن ذكر الله ، ومن يفعلْ ذلك فأولئك هم الخاسرون) .

المنافقون : ٩

(سيقولُ لك المخلَّفون من الأعرابِ شغلَتْنا أموالُنا وأهلونا فاستغفرْ لنا ، يقولون بألسنتِهم ما ليس في قلوبهم ..)

الفتح : ١١

وننفقه فيما أحل الله لنا من طيبات الرزق ، وفيما فُرض علينا من تكافل وتراحم ، واستثمار في وجود المنفعة العامة ، وبذل في سبيل الله للحق والخير ، مِنْ غيرِ مَنٍّ ولا أذى ، فيضاعفه الله ويبارك لنا فيه :

(مثَلُ الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثَلِ حبَّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ في كل سنبلة مائةُ حبّةٍ ، واللهُ يضاعفُ لمن يشاء ، إن اللهُ واسعٌ عليم * الذين ينفقون أموالهم في سبيلِ اللهِ ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى ، لهم أجرُهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

البقرة : ٢٦١ — ٢٦٢

وأحلَّ الله البيعَ والتجارةَ ، وحرَّم الربا وأكلَ أموال الناس بالباطل والإدلاءَ بها إلى الحُكام بالإثم تزلفاً وتواطؤاً ، وأكلَ أموالِ اليتامى ظلماً وبغياً :

(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقومُ الذي يتخبّطُه الشيطانُ من المسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثلُ الربا ، وأحَلَّ اللهُ البيعَ وحرَّم الربا ، فمن جاءه موعظةٌ من ربِّه فانتهى فله ما سلف وأمرُه إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحابُ النارهم فيها خالدون * يَمْحَقُ اللهُ الربا ويُربي الصدَقاتِ ، واللهُ لا يُحِب كلَّ كفّارٍ أثيم) .

البقرة : ٢٧٥

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وذَروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فائذنوا بحربٍ من اللهِ ورسولِه ، وإن تُبتم فلكم رءوسُ أموالِكم لا تَظلمون ولا تُظلمون) .

البقرة : ٢٧٨ — ٢٧٩

(ولا تأكُلوا أموالَكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحُكّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) .

البقرة : ١٨٨

(إن الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونِهم ناراً وسيَصْلَوْن سعيراً) .

النساء : ١٠

(ويلٌ للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون)

المطففون : ١ – ٣

ويبطلُ في الإسلام ما يُنفَق من المالِ رياءً وسمعة . ومنكر فيه أن يُنفَق في باطل وفساد وعدوان :

(يا أيها الذين آمنوا لا تُبطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفق مالَه رئاءَ الناسِ ولا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فمَثَلُه كمثَلِ صَفْوَانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صَلْداً لا يقدرون على شيءٍ مما كسبوا ، واللهُ لا يهدي القومَ الكافرين .)

البقرة : ٢٦٤

(إن الذين كفروا يُنفقون أموالَهم ليصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ ، فسينفقونها ثم تكونُ عليهم حسرةً ثم يُغلَبون ، والذين كفروا إلى جهنم يُحشَرون * ليميّزَ اللهُ الخبيثَ من الطيبِ ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ فيركُمَه جميعاً فيجعلَه في جهنم ، أولئك هم الخاسرون .)

الأنفال : ٣٦ – ٣٧

ويل للذي يجمع المال لا يؤدي حقه ، ومَن يكنزه ويكدسه فيحبسه عن الإنفاق في الخير والاستثمار في المنفعة العامة ، ويرتكس في وثنية عبودية المال :

(ويلٌ لكلِّ هُمَزة لُمَزة * الذي جَمَعَ مالاً وعَدَّدَه * يحسَبُ أن مالَه أخلَدَه * كلا ليُنبذَنَّ في الحُطَمةِ * وما أدراكَ ما الحُطَمة *

نارُ اللهِ الموقَدة * التي تَطّلِع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصَدة * في عَمَدٍ مُمَدَّدة)

الهمزة

(والذين يكنِزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرْهم بعذاب أليم * يومَ يُحمَى عليها في نارِ جهنمَ فتُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنزتم لأنفسِكم فذوقوا ما كنتم تَكنِزُون .)

التوبة : ٣٤ — ٣٥

* * *

على أن الإسلام لم يترك مسألة المال للأفراد يتصرفُ فيه كل منهم على قدر ما تطوع به نفسُه ويرضى إيمانه ، بل فرض الزكاةَ قاعدة من قواعد الإسلام الخمس ، وأوجَب الجهادَ بالمال والنفس ، تكليفاً شرعياً . وضُبطت حدودُ اللهِ في الفيء والصدقات ، ومصارف بيت المال العام ، وفي النفقة والصداق والمواريث والهِبَة والوصية والدَّيْن ، لكيلا يكون المالُ (دولةً بين الأغنياء منكم)

وفَصَّلت السُّنة النبوية ، ما أجمل القرآن من ذلك كله، فأخذ تشريع المال والمعاملات من أحكام الفقه ، ما يعرفه دارسوه .

وترك الإسلام ما وراء ذلك من برٍّ وبذل ، لإيمانِ المؤمن وإيثاره ، وما يبتغي من رضوان الله :

(الذي يُؤْتِي مالَه يتَزَكّى * وما لأحَدٍ عنده من نِعمَةٍ تُجزَى * إلا ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلى * ولَسَوْف يرضَى) .

* * *

وفي (باب تحريم الاحتكار في الأقوات) من صحيح مسلم ، الحديثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « من احتكر فهو خاطىء » .

وفي (شرح النووي) · الاحتكار المحرم هو في الأقوات خاصة، بأن يشتري الطعامَ وقت الغلاءِ للتجارة ولا يبيعه في الحال، بل يدخره لغلو. والخاطىء: العاصي الآثم.

وحدَّث «أبو سعيد الخدري» قال:

«بينما نحن في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يُصرف بصره يميناً وشمالاً – متعرضاً لشيء يدفع به حاجته – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مَن كان معه فَضْلُ ظهرٍ فليَعُدْ به على مَن لا ظهرَ له[1] ومن كان معه فضلُ زادَ فليعُدْ به على مَن لا زاد له ..»

قال أبو سعيد: فذكر، صلى الله عليه وسلم، من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحدٍ منا في فضلٍ.

والهدية التي أباح لنا الإسلام قبولَها، تواصُلاً ومودة، حرَّمها على الحكّام إذا التبست بالرشوة، أو التواطؤ، يُدلي بها بعض الناس إلى الحكام، ليغضوا أبصارهم عما يُستباح من حرماتٍ وما يؤكل من أموال الناس بالباطل:

قال تعالى: (ولا تأكلوا اموالكم بالباطل وتُدلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون).

وفي (كتاب الإمارة) من صحيح مسلم، عن عروة بن الزبير، قال: استعمل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد على صدقات بني سليم. فلما جاء حاسبه، فقال: هذا مالُكم، وهذا هدية أهديتْ إلي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«فهلاَّ جلستَ في بيتَ أبيك وأُمِّك حتى تأتيَك هديتُك إن كنت صادقاً؟»

---

(١) أي ما يركب على ظهره. وخص بالإبل.

ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإني أستعملُ الرجلَ منكم على العمل بما ولاني الله فيأتي فيقول : هذا مالكم ، وهذا هدية أهديت لي . أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديتُه إن كان صادقاً ؟ والله لا يأخذُ أحدٌ منكم منها شيئاً بغيرِ حقه إلا لَقِيَ اللهَ تعالى يحمله يومَ القيامة .. »



وليس هنا ، بطبيعة الحال ، مجال العرض المفصَّل لتشريع المال في الإسلام، وإن الباب الواحد منه ، كالزكاة أو الخراج أو المعاملات ، ليشغَل من الفقه الكتب ذات العدد .

إنما قصدتُ إلى أن ألفت عامة قومي إلى مدى عناية الإسلام بالمال ، فلا يقولنّ قائل إن المؤمن حقاً من لا يُشغل به ولا يفكر فيه .

المبدأ الإسلامي ، أن نميز بين طيب حلال ، وخبيث حرام ، ليؤدي المال الحلال ، كسباً وإنفاقاً واستثماراً ، وظيفتَه العامة لخير المجتمع .

ولعلي أردت كذلك أن أصحح الظن الشائع عن غض الإسلام من قيمة المال ، والوهم الذائع بأن وظيفته الاجتماعية لم تُعرف إلا في مُحدَث النظم والمذاهب الوضعية .

وما أدرى كيف يبلغ إلزام مذهبي أو قانون ضريبي ، مبلغ عقيدة تجعل إيتاء الزكاة فريضة ، وإنفاق المال في الخير والبر إنفاقاً في سبيل الله وقرضاً حسناً له تعالى مُضاعَف الأجر .

كما تجعل وثنية المال لعنة ، وحبسَه عن النفع العام خطيئة ، واحتكارَ الأقوات معصية ، والإنفاق في باطل وفساد وعدوان ، إثما ونُكرا ؟ !

(أفلا يتدبرون القرآنَ أم على قلوبٍ أقفالُها) .

المبحث الرابع :

بين العبادة والعمل

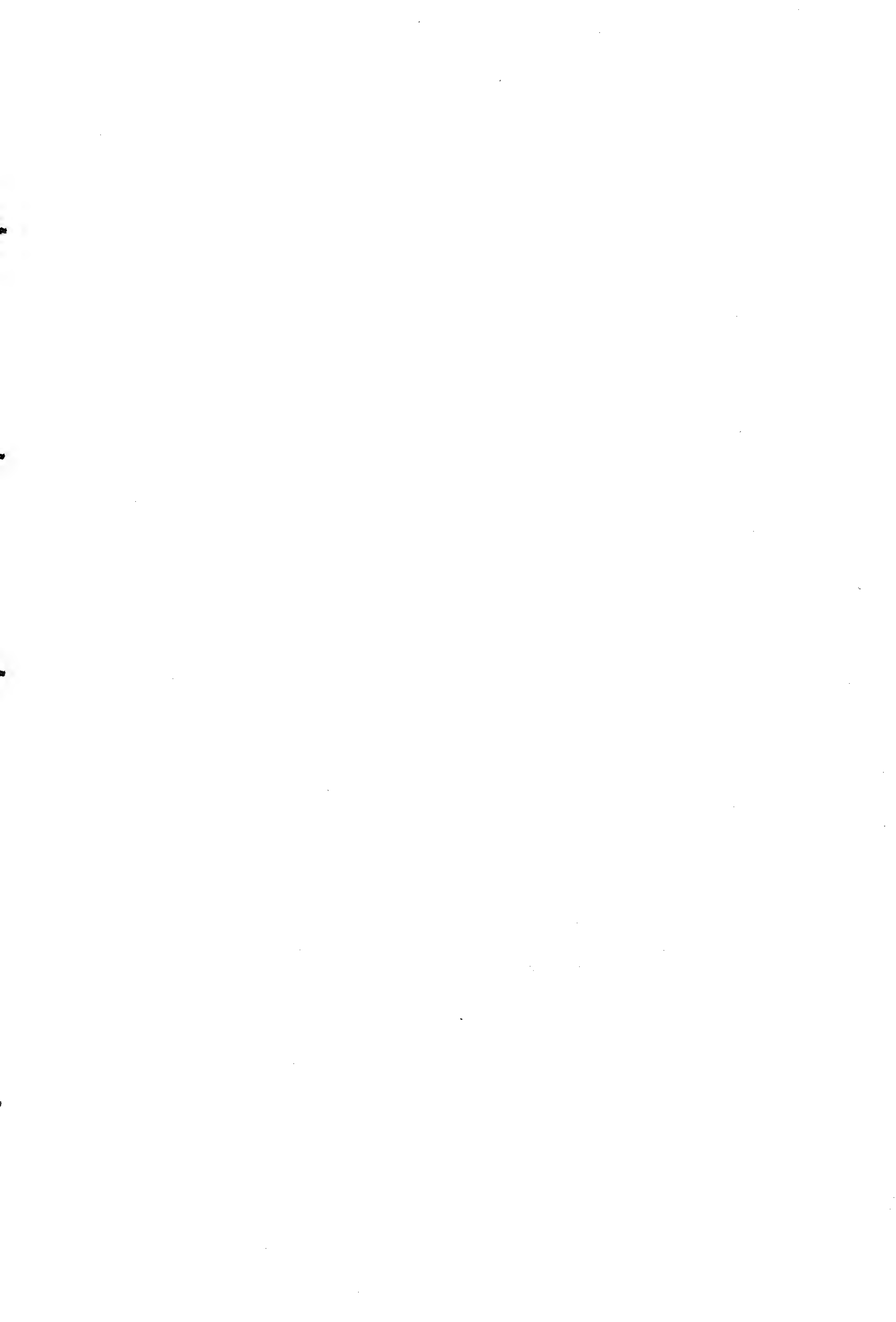
(فإذا قُضِيَت الصلاةُ فانتشروا في الأرضِ وابتغُوا من فضلِ اللهِ ، واذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحون)

قرآن كريم

(مثَلُ المجاهدِ في سبيل اللهِ كمثَلِ الصائم القائم لا يفترُ عن صلاة ولا صيام ، حتى يرجع)

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »

محمد ، رسول الله



وأتابع التدبر لملامح الشخصية الإسلامية ، فأعجب لما راح عنها من إيثار الانقطاع للعبادة والانصراف إليها عن الدنيا ومن فيها وما فيها .

من أوائل الوحي ، نزلت آية المزمل – ثالثة السور ، على المشهور في ترتيب النزول – توجه المسلمين إلى ألا يشقوا على أنفسهم بما لا يطيقون من قيام الليل تعبداً وتهجداً وتلاوة، وتقدِّر أن فيهم مرضى ، وساعين في الرزق، ومجاهدين في سبيل الله :

(إن ربَّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفَه وثُلُثَه وطائفةٌ من الذين معك، واللهُ يُقَدِّر الليلَ والنهارَ ، علم أن لن تُحصوه فتابَ عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، عَلِمَ أنْ سيكونُ منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل اللهِ فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرِضوا الله قرضاً حسناً، وما تُقَدِّموا لأنفسِكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظمَ أجراً، واستغفروا اللهَ إن اللهَ غفور رحيم) .

المزمل : ٢٠

فإن يكن ثَمت ريبٌ في أن الإسلام لا يريد لأبناء أمته العزلة المنقطعة عن العالم المستغرقة في خلوة التعبد ، فلنذكر أن من شعائر العبادات ما لا يُؤدى إلا جماعة : كصلاة الجمعة ، وصلاة العيدين ، وفريضة الحج ، والجهاد بمختلف أنواعه .

ثم إن الصلاة في المسجد من سنن الهدى .

ولا تستوي الصلاة فيه مع الجماعة ، وصلاةُ الفرد في بيته . وفي صحيح الحديث أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد ، بضعاً وعشرين درجة .

وعن عثمان بن عفان ، قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَن صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصفَ الليل ، ومن صلى الصبحَ في جماعة فكأنما قام الليلَ كله » .

يقول عبدالله بن عمر ، وقد رأى بعض القوم يتخلفون عن الصلاة في المسجد : « مَن سرَّه أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظْ على هؤلاء الصلوات حيثُ ينادَي بهن ، فإن اللهَ شرع لنبيِّكم صلى الله عليه وسلم سُنَنَ الهدى ، وإنهن من سنن الهدى . ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يُصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم . ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم . وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة . ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجلُ يُؤتىَ يُهادَي بين الرجلين — معتمداً عليهما لوهَنِه — حتى يُقام في الصفِّ » .

ولا يتخلف المؤمن عن صلاة الجماعة إلا لعذر . في الحديث عن « عتبان بن مالك » وهو ممن شهد بدراً من الأنصار ، أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

— يا رسول الله ، إني قد أنكرتُ بصري ، وأنا أصلِّي لقومي ، وإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم ولم أستطع أن آتي مسجدَهم فأصلي لهم . ووددتُ أنك يا رسول الله تأتي — بيتي — فتصلي في مُصَلى فأتخذه مصلى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أفعل إن شاء الله » .

وغدا ، ومعه أبو بكر الصديق ، حين ارتفع النهار ، إلى بيت عتبان . فاستأذن ، وسأل صاحبا :

« أين تحب أن أصلي من بيتك ؟ »

فأشار إلى ناحية من البيت ، فقام صلى الله عليه وسلم فكبّر وصلّى بمن هناك ركعتين .

* * *

على أننا لم نؤمر بمواصلة التعبد والانقطاع له بعد قضاء الصلاة في الجماعة بالمسجد ، بل ننتشر في الأرض ساعين عاملين ، نبتغي من فضل الله :

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودِيَ للصلاةِ من يومِ الجمعةِ فاسعَوا إلى ذكرِ اللهِ وذَروا البيعَ ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قُضِيت الصلاة فانتشروا في الأرضِ وابتغُوا من فضلِ الله واذكُروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون .) الجمعة : ٩ — ١٠

وإنما سُنَّ الاعتكافُ في المسجد ، في العشر الأواخر من شهر رمضان الذي هو بطبيعته موسم تدريب ورياضة ومجاهدة ، تبدو فيه حاجةُ المعتكف إلى صفاء التأمل ومراجعة النفس ، والتزود من عطاء الشهر المبارك ، قبل وداعه إلى دورة تالية للسنة القمرية .

وفي الشرع يُسمى الاعتكافُ جواراً ، مراداً به جوار المسجد . وقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان يدخل معتكَفه في المسجد ، بعد أن يحيى الليل ويصلي بالمسلمين الفجر .

عشر ليال فحسب ، من السَّنَة كاملة ، يتخفف فيها المؤمن من أثقال المادة وشواغل الدنيا ، ويخرج من معتكفِه مرهفَ الحس والضمير ، صافي الروح والوجدان ، ليحمل تكاليف الجهاد والسعي .

وأطيل التدبر لفريضة الجهاد ، فيما تأخذ به أبناء الأمة من يقظة وسعي وتعبئة واحتشاد وبذل ، مما لا يكون مع العزلة في خلوة التعبد ، والانقطاع لـــه :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وابتغوا إليه الوسيلةَ وجاهدوا في سبيلهِ لعلكم تُفلحون) .

المائدة : ٣٥

(من المؤمنين رجالٌ صَدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم مَن قَضَى نَحْبَه ومنهم مَن ينتظرُ وما بَدّلوا تبديلا * ليجزيَ اللهُ الصادقين بصدقِهم ويعذبَ المنافقين إن شاء أو يتوبَ عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيماً) .

(يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون * كبُر مَقتاً عند اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون * إن اللهَ يحبُّ الذين يقاتِلون في سبيلِه صَفّاً كأنهم بُنيانٌ مرصوص .)

الصف : ٢ — ٤

(لا يستأذنُك الذين يؤمنون باللهِ واليوم الآخِر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، واللهُ عليم بالمتقين) .

(ذلك بأنهم لا يصيبُهم ظمأ ولا نصَبٌ ولا مَخمَصةٌ في سبيلِ الله ولا يَطئون مَوْطِئاً يَغيظُ الكفارُ ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالح ، إن الله لا يُضيع أجرَ المحسنين * ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليجزيَهم اللهُ أحسنَ ما كانوا يعملون) .

التوبة : ٤٥ — ١٢١

الجهادُ في العقيدة الإسلامية ، عبادة

في صحيــح الحديث من (كتاب الجهــاد) ، قــال النبي عليه الصلاة والسلام :

« لَغُدوة في سبيلِ اللهِ أو رَوْحة ، خيرٌ من الدنيا وما فيها » .

« مثلُ المجاهد في سبيلِ اللهِ كمثَلِ الصائم القائم القانت لا يفترُ من صيام ولا صلاة ، حتى يرجع » .

« رِباطُ يومٍ وليلة ، خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِه »
(الموطأ ، والصحيحان)

ولا يتخلف مؤمنٌ عن الجهاد ، لينقطع للعبادة . وهو يعلم من أصول دينه أن شعائر العبادات المفروضة ، فضلاً عما يُقام منها تطوعاً، لا تُعطِّل الجهاد ، بل يحلّ للمؤمنين المجاهدين أن يقصروا من صلاتهم إذا خافوا أخذةَ العدو على غفلة :

(فإذا ضربتُم في الأرض فليس عليكم جُناحٌ أن تَقصُروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً * وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ فلتقُم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتَهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتِ طائفةٌ أخرى لم يُصلّوا فليُصلوا معك وليأخذوا حذرَهم وأسلحتَهم ، ودَّ الذين كفروا لو تغفلونَ عن أسلحتِكم وأمتعتِكم فيميلون عليكم مَيْلةً واحدة ..)
النساء : ١٠١ — ١٠٢

ويحل كذلك أن يؤجَّل وقتُ الصلاة إذا اقتضى الجهادُ هذا التأجيل ، ثم تقضي الصلاة بعد الاطمئنان :

(فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاةَ إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً).
النساء : ١٠٣

في (الموطأ) عن سعيد بن المسيب ، قال :

« ما صلىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الظهرَ والعصرَ يومَ الخندق ، حتى غابت الشمس » .

(أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين) .

وجَمَعَ المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بين الصلاتين في غزوة تبوك .
في (صحيح مسلم) عن معاذ بن جبل ، وعن ابن عباس ، قالا :

« جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء » .

سُئِل كل منهما : ما حمله على ذلك ، ولم يدُرْ في غزوة تبوك قتال؟ فقالا :

« أراد أن لا يحرج أمته » في ظروف التعبئة والحشد للجهاد .

وفي (صحيح البخاري) عن أنس بن مالك ، قال :

« كان أبو طلحة لا يصوم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، من أجل الغزو . فلما قُبِض النبي صلى الله عليه وسلم ، لم أره مُفطِراً إلا يوم فِطر أو ضحى » .

***

وعامة المسلمين ليسوا بحيث يجهلون أن الجهاد عبادة .

لكنا نحتاج إلى إدراك مفهوم الجهاد ، ومجاله .

الجهاد في سبيل الله، ليس على الفهم الشائع، استبسالاً في قتال العدو فحسب ، بل يتسع مفهومه لكل جهاد ، في أي مجال ، في سبيل الحق والعدل والخير .

في (صحيح البخاري) أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليهِ وسلم :

– يا رسول الله ، ما القتالُ في سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غَضباً ، ويقاتل حميةً ، ويقاتل سُمْعةً .

فقال ، عليه الصلاة والسلام :

« مَن قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا ، فهو في سبيلِ الله . »

وكلمة الله ، هي الحق والعدل والخير . في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه : « ما تعدون الشهيد فيكم ؟ » .

قالوا : مَن قُتِل في سبيلِ الله فهو شهيد .

فقال : « إن شهداء أمتي إذنْ لَقليل »

سألوا : فمَن الشهداء يا رسول الله ؟

قال : « من مات في سبيل الله فهو شهيد »

فعرفوا من ذلك أنْ ليس الشهداء فقط مَن قُتلوا في معارك الجهاد ،

لا يبالي أحدهم على أي جنبٍ كان في الله مصرعُه ،

بل معهم من الشهداء ، مَن احتملوا التضحياتِ والآلام ، وناضلوا حتى الموت ، لتكون كلمة الله هي العليا .

ويرحب مجالُ الجهاد في سبيل الله . فيقول رسوله عليه الصلاة والسلام :

« مَن جهّز غازياً في سبيل الله ، فقد غزا . ومن خلَفه في أهله بخيرٍ فقد غزا »

وفي (صحيح البخاري) عن « أنس بن مالك » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،خرج للجهاد في جمع من أصحابه في يومْ صيام شديد الحرّ، فأفطر بعضهم برخصة الإفطار لمن كان على سفر . وآثر آخرون أن يتكلفوا مشقة الصيام على سفر ، ابتغاء الأجر والثواب . فحدث أن مضى النهارُ كلــه والصائمون قد فتروا ما عملوا شيئاً ، والمفطرون دائبون على العمل منقطعون لخدمة الجماعة وتدبير شئونها العملية . فقال المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« ذهبَ المفطرون بالأجر »

وفي ترجمة الصحابي « معاوية بن جاهمة السلمى » [1] أنه قال : أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أستأذنه في الجهاد . فقال : « ألك أُمٌّ ؟ » قلت : نعم . قال : « فالزمْها فإن الجنة تحت قدميها »

وأخرج (البخاري) في صحيحه حديث عبدالله بن عمرو ، قال :

« قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أجاهد ؟

سأله : « ألك أبوان ؟ » قال : نعم .

فقال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) انظره في (الاستيعاب لابن عبد البر) ١٤١٣/٣ ط الحلبي .

« ففيهما فجاهدْ »

وفي رواية عنه ، بصحيح مسلم ، أن رجلاً جاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغي الأجر من الله .

سأل عليه الصلاة والسلام : « فهل من والديك أحدٌ حيّ ؟»

قال : نعم .

قال : « فتبتغي الأجر من الله ؟ »

قال : نعم .

فقال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما »

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« الساعي على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله »

وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر والصائمِ لا يفطر

* * *

ويكون الجهاد بحمل أمانة الكلمة ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وشهادة بالحق لا يخاف المؤمن فيها لومة لائم ، ولا يبالي ما يلحقه في سبيلها من غضب غاضب أو سطوة متجبر .

إنها (كلمة التقوى) التي ألزمها اللهُ رسولَه والمؤمنين (وكانوا أحقَّ بها وأهلَها)

الفتح : ٦

وهي رسالة هذه الأمة ، ومناط خيريتها :

(ولْتكنْ منكم أمةٌ يدعُون إلى الخيرِ ويأمرون بالمعروفِ وينهَوْن عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) .

(كنتم خيرَ أمةٍ أُخرِجتْ للناسِ تأمرون بالمعروفِ وتنهَوْن عن المنكَرِ وتؤمنون باللهِ) .

آل عمران : ١٠٤ ــ ١١٠

وخيانة أمانة الكلمة ، بقول الزور ، من الكبائر المحرّمة في الإسلام :

(فاجتنبوا الرِجسَ من الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزور * حنفاءَ للهِ غيرَ مشركين به ، ومن يُشركْ باللهِ فكأنما خرَّ من السماء فتخْطفُه الطيرُ أو تهوِي به الريحُ في مكانٍ سحيق)

الحج : ٣٠ ــ ٣١

وعباد الرحمن هم الأتقياء المؤمنون الذين لا يدعُون مع الله إلها آخر ولا

يقتلون النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق ، (والذين لا يشهدون الزور وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراما)

الفرقان : ٧٢

وإذا قيل : « إذا كان الكلام من فضة ، فإن السكوت منْ ذهبٍ » . فينبغي أن نعلم أن الإسلام يحرم السكوت على منكر ، ويعد كتمان الشهادة بالحق ، من إثم القلب وهو أفدح الإثم .

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولو على أنفسِكم أو الوالدين والأقربين ..)

النساء : ١٣٥

(ولا تكتُموا الشهادةَ ومن يكتمْها فإنه آثمٌ قلبُه)

البقرة : ٢٨٣

(ومَن أظلمُ ممن كتم شهادةً عنده من اللهِ ، وما الله بغافل عما تعملون)

البقرة : ١٤٠

لأن الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس ، وقد حاقت اللعنةُ بكفارَ بني إسرائيل ، أنْ كانوا لا يتناهون عن المنكر :

(لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسانِ داوُدَ وعيسَى بنِ مريمَ ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتَناهَون عن مُنْكَرٍ فعلوه، لَبئس ما كانوا يفعلون)

آل عمران : ١١٢

في (الموطأ ، والصحيحين) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (إن الرجلَ ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانَه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة

من سخط الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب اللهُ له بها سخطَه إلى يوم يلقاه)

في (صحيح مسلم) عن عبادة بن الصامت عن أبيه ، قال : حدثني أبي فقال :

« بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازعَ الأمرَ أهلَه ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم »

وفي (مسند أحمد) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« لا يمنعَنَّ أحدَكم رهبةُ الناسِ أن يقول بحقٍّ إذا رآه »

* * *

وقد كان يعصم المستضعَفين في عصر المبعث ، من محنة التعذيب حتى الموت ، أن يقولوا كلمةَ الكفر التي سألها طغاةُ الوثنية القرشية ، فيكفوا عنهم .

لكنهم لم يقولوها ، بذلوا الحياة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، فكانوا شهداءَ الكلمة ، وإن لم يحملوا سلاحاً قط .

وكان في جند المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كتيبة من الشعراء المؤمنين ، تجاهد بالكلمة وتُصْلِي المشركين حُمَماً من الشعر قال المصطفى إن وقعَها عليهم أشد من نَضْحِ النَّبْل .

ويعتز تاريخ الإسلام بجنودٍ لكلمة الحق قذفوا بها الطغيان والباطل ، واحتملوا في سبيلها محنة الاضطهاد والسجن والتعذيب ، وقُتل بها مَن قُتل « لتكون كلمة الله هي العليا » فكانوا شهداءها . ومعهم مَن ماتوا على كلمة التقوى والحق ، لم يفرطوا فيها تحت ضغط الإرهاب وجبروت السطوة ،

وصدقت فيهم كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما تزال طائفة من أمتي قائمةً بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم ، حتى يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون على الناس »

وكل « من مات في سبيل الله فهو شهيد »

وكل « مَن قُتل دون مظلمةٍ فهو شهيد »

* * *

والغيبة المحرَّمة على المؤمنين بصريح الآية :

(ولا تجسَسُّوا ولا يغتب بعضُكم بعضاً أيحب أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً فكرِهتموه ، واتقوا اللهَ ، إن اللهَ تواب رحيم)

الحجرات : ١٢

أُحِلّت لهم في مواقف الشهادة بالحق والنهي عن المنكر والتظلم والتحذير من بدعة . وقد بين الفقهاء هذه المواضع التي تحل فيها الغيبة ، ونظمها حجة الإسلام « ابن حجر » في بيته المشهور :

تظلمْ ، واستغثْ ، واستفتِ ، حذِّرِ

وعرِّف بدعةَ فسقِ الفاجـــرِ

وبقدر ما يشتد الإسلام في تحريم قول الزور وكتمان كلمة الحق ، يُحذر المؤمنين من مقت الله الأكبر : أن يقولوا ما لا يفعلون :

(يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون * كبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)

ويكون الجهاد كذلك بالعلم ، وهو كسائر أنواع الجهاد فريضة وعبادة ، تضع العلماء مع الرسل والصفوة من المؤمنين ،

وإذ تقرر العقيدة الإسلامية ألا تفاضل بين الناس إلا بالإيمـــان والتقوى والعمل الصالح ، يدخل العلم في اعتبار هذا التفاضل :

قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب)
الزمر : ٩

(يرفعُ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ)
المجادلة : ١١

ويقصُر اللهُ خشيتَه على العلماء :
(إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ)

وقد يحفظ المسلمون الحديث الشريف :
« اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم »

ولكن قليلاً منا ، مَن يحفظون معه من حديث نبينا عليه الصلاة والسلام :
« من خرج في طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع »
« لَفقيه واحدٌ أشد على الشيطان من ألفِ عابد »
« فضلُ العالِم على العابِد ، كفضلي على أمتي »
« إن العلماء ورثة الأنبياء : ان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا دزهماً ، ولكنهم

ورثوا العلمَ . فمن أخذه أخذ بحظ وافر »

وفي (كتاب العلم) عن أبي ذر الغفاري :

« لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم ، خير لك من أن تصلي مائة ركعة » تطوعاً .

وعن ابن مسعود : « الدراسة عبادة »

وعن ابن عباس :

« تذاكُرُ العلم بعضَ ليلةٍ أحبَّ إليّ من إحيائها »

وفي (سنن الترمذي) الحديث عن معاذ بن جبل :

« وتعلموا العلم فإن تعلمه خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرتَه تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، والفكرة فيه تعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، وتعليمه لمن لا يعلم صَدقة ، وبذله لأهله قربة . لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبُل دار السلام ، والمؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء . يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير هداة يُهتدى بهم وأئمة يُقتدى بهم ويُنتهى إلى رأيهم .

ورواه « ابن عبد البر » في (كتاب جامع بيان العلم وفضله) وقال :

« حديث حسنٌ جداً ، وليس له إسناد قوي ، قال في (توضيح الأفكار) : ولا يخفى أن عليه حلاوة الكلام النبوي وطلاوته ، وله شواهد في شرف العلم».

* * *

والعلم لا يعطي ثوابه مع الانقطاع والعزلة ، بل يرى الإسلامُ في حَبْس العلم عن الناس إثماً ، يدخل في كتمان الحق . وفي الحديث عن أبي هريرة :

« من سئل عن علم يعلمه فكتمه ، جاء يومَ القيامة مُلجَماً بلجام من نار »

عطاء العلم في تبليغه ونشره، والجهادُ به إنما يكون بتعليم الناس ونفعهم به.

عن جابر بن عبدالله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يبعث اللهُ العالم والعابدَ ، فيقال للعابد : أُدخل الجنة ، ويقال للعالم : اشفعْ للناسِ كما أحسنتَ أدبَهم » .

وقد بُعث النبي الإسلام ، عليه الصلاة والسلام ، هادياً ومعلماً ، قال تعالى :

(هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

الجمعة : ٢

وقال عليه الصلاة والسلام ، في خطبته يوم الفتح :

« ألا وليبلّغ الشاهدُ الغائبَ ، فرُبَّ مبلّغ أوعى من سامع لما سمع » .

وعن عبدالله بن عمرو ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بمجلسين في مسجده بدار الهجرة : رجال أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخرون يتذاكرون الفقه ويتدارسونه . فقال صلى الله عليه وسلم :

« كِلا المجلسين على خير ، وأحدُهما أفضلُ من الآخر : أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه ، إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم . وأما هؤلاء فيتعلمون ويُعلمون الجاهل ، وإنما بُعِثت مُعَلماً » .

ثم أقبل فجلس معهم .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« يحمل هذا الدينَ من كل خلَف عدولُه ، ينفون عنه : تحريف الغالين ، وانتحالَ المبطِلين ، وتأويل الجاهلين » .

* * *

وقد مضى الأئمة من السلف الصالح على الاشتغال بالعلم والتعليم ، عبادةً وجهاداً .

عن أبي الدرداء : « من رأى الغدوّ والرواحَ إلى العلم ليس بجهاد ، فقد نقص عقلهُ ورأيه » .

وحين اطمأن « عمر بن عبد العزيز » إلى جمع الحديث وتدوينه ، كتب بذلك إلى أبي بكر بن حزم ، وقال له فيما قال : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبْه ، فإني خشيتُ دروسَ العلم وذهابَ العلماء ... « وليُفشِ العلماء العلم ، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يَهلك حتى يكون سِرّاً » .

(صحيح البخاري)

وقال سفيان الثوري ، أحد شيوخ الإمام مالك :

« لا أعلم من العبادة شيئاً أفضلَ من أن يعلم الناسُ العلم » .

وعاها تلميذه مالك ، فيقول ابن وهب : « كنت عند مالك بن أنس ، الإمام ، فجاءت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وأنظر في العلم بين يديه ، فجمعتُ كتبي وقمت لأصلي ، فقال لي مالك : ما هذا ؟ قلت : أقوم إلى الصلاة .

فقال : إن هذا لعجب ! ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ من الذي كنتَ فيه إذا صحّت النية » [1] .

وحدّث محمد بن يوسف الشيباني ، قال :

« سمعتُ الربيع بن سليمان يقول : سمعت الشافعي يقول : تطلبُ العلم أفضلُ من الصلاة النافلة »

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله /٢٤ ط المنيرية بالقاهرة .

ويذكر « التاج السبكي » خبر الإمام الشافعي حين رحل إلى العراق فنزل على أحمد بن حنبل . فتوقعت بنتُ أحمد أن يقوم الشافعي الليلَ كله ، لكثرةِ ما سمعتْ عن ورعه وتقواه. وباتت ترقبه، فإذا هو لم يبرح راقداً على فراشه حتى قام لصلاة الصبح . فلما أصبحت قالت لأبيها :

– يا أبت، أنت تعظم الشافعيَّ وما رأيت له في هذه الليلة صلاةً ولا ذكراً.

ودخل الشافعي ، فسأله أحمد : كيف كانت ليلتك ؟

قال : ما رأيت أطيب منها ولا أبركَ ولا أربحَ ، لقد رتبتُ في هذه الليلة مائةَ مسألة ، في مصالح المسلمين ، وأنا مستلقٍ على ظهري .

عند ذاك التفت الإمام أحمد إلى بنته وقال :

– يا بُنَيّة، هذا الذي عَمِلَه الليلةَ وهو راقد، أفضلُ مما عملتُه وأنا قائم»[1].

* * *

وإلى ماضٍ غير بعيد ، كان كثير من العلماء المسلمين ، من أولياء الله الصالحين الذين جعلوا من خدمة علوم العربية والإسلام ، وسيلةً إلى الله وقربى .

وتبدو هذه الظاهرة في العلماء المغاربة بوجه خاص ، حيث يندر أن ترى مزاراً لأحد الأولياء ، لم يكن الثاوي فيه من أئمة علماء الإسلام .

وكل الزوايا في المغرب ، كانت دوراً للعلم والعبادة ، يقوم عليها علماء بررة من الأولياء الأئمة .

ويبدو لي أن موقع المغرب الحساس ، في الطرف الأقصى للعالم الإسلامي ، على مشارف معاقل الكاثوليكية في فرنسا واسبانيا ، كان عاملاً جوهرياً في تقوية هذه الظاهرة اللافتة . فأولئك الأولياء العلماء ، العارفون العاملون ، هم

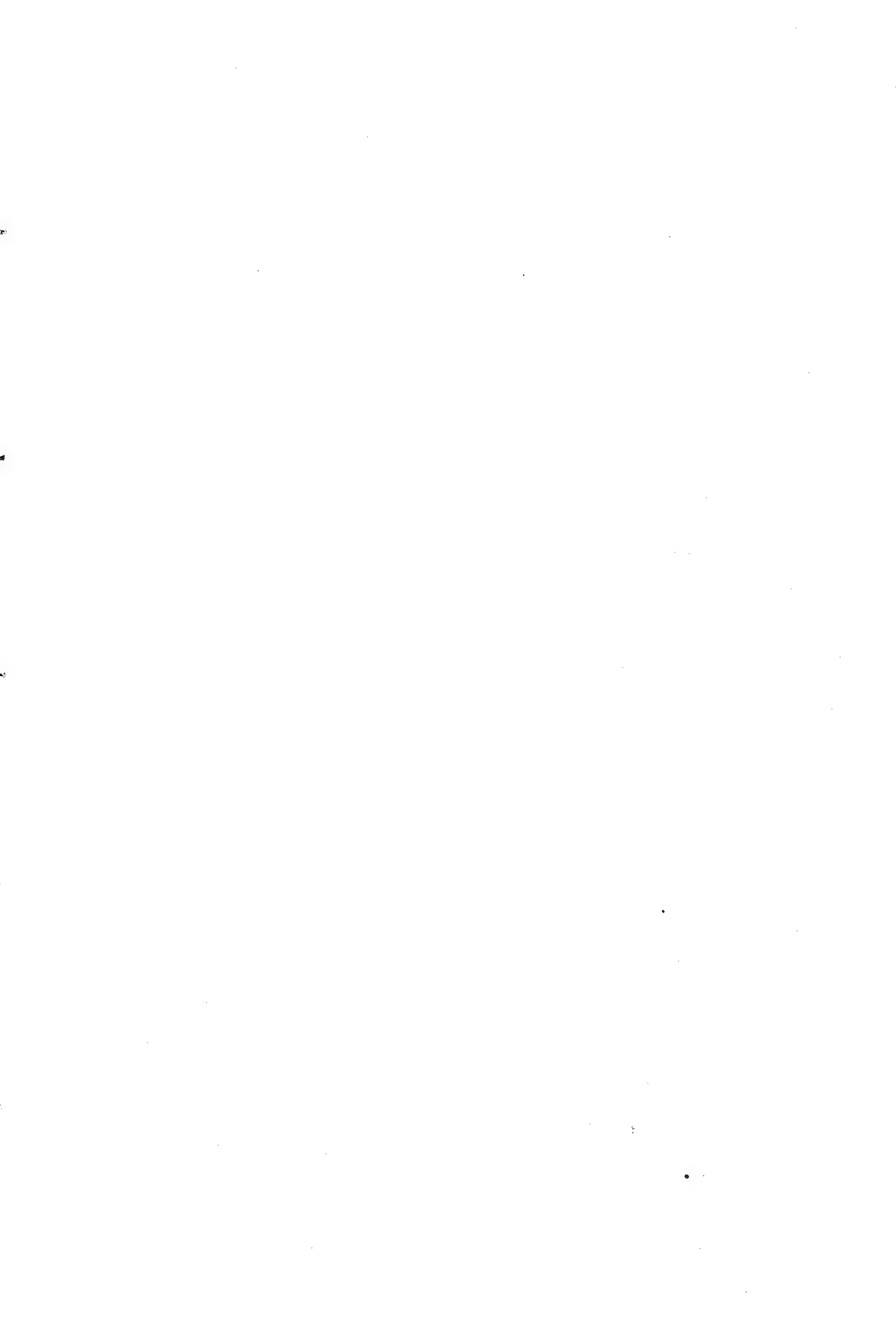
---

(١) السبكي : طبقات الشافعية ، الجزء الأول .

الذين حرسوا للأمة هذه الجبهة المغربية وسهروا على حمايتها من الغزو الصليبي . وبقيت ذكراهم الحية ومزاراتهم المباركة ، تحرس الضمير الشعبي وتذكي نضاله عن وجوده الإسلامي .

ودارسو معركة الجزائر الباسلة ، لا يغيب عنهم أن الانتماء إلى الإسلام كان العنصر الأساسي في كفاح الشعب،وأن الجهاد المسلح لكتائب التحرير ، سبقته تعبئة وجدانية وفكرية ، سهر عليها علماء الإسلام ...





المبحث الخامس :

بين الدين والعقل

(إنّ شرّ الدواب عند الله الصمّ البكمُ الذين لا يعقلون)
قرآن كريم

(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد)

محمد رسول الله

(مَن زعم أنه يرى الجنّ أبطلنا شهادته)

الإمام الشافعي



من ذلك الأفق العالي الذي يرفع العمل والعلم إلى مستوى العبادة وأفضل الجهاد ، لا يهون التسليم بما لصق بالشخصية الإسلامية من تواكل ، ومـا اتُّهِمَت به من عقلية غيبية معطلة للأسباب .

إذ كيف يمكن أن يكون تكليف وجهاد، بالنفس والمال والعمل والعلم ، مع الشائع عن هذه الشخصية المتواكلة ، المعطلة لأمانة الإنسان ومسئولية الكسب ومنطق العقل وعطاء العلم ؟

وسبق لي ، في مبحث حرية الإرادة من دراستي القرآنية « مقال في الإنسان» أن وقفت طويلاً عند مشكلة الجبر والاختيار التي اختلفت فيها أقوال المتكلمين من الفرق الإسلامية ، فكانت من أعقد القضايا في الفكر الإسلامي ، وإنهـا لكذلك في الفكر الإنساني العام .

عقدة الموقف فيها ، أن المجبرة تعلقوا بآيات قرآنية تثبت الإرادةَ لله وحده ، سبحانه (إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون) .

على حين تعلق القائلون بالاختيار ، بأدلة ثابتة من آيات محكمات تثبت الإرادة لنا :

(وأن ليس للإنسان إلا مـا سعى * وأن سعيه سوف يُرى * ثم يُجزاه الجزاء الأوفى)

ثم هدَى التدبرُ والاستقراء ، لكل آيات الإرادة في القرآن ، أن مفهوم إرادة الخالق ، غير مفهوم الإرادة الإنسانية ، فليست الإرادتان متماثلتين ، ليقال بتصادمهما وتعارضهما : إرادتنا كسبية فيما هو متروك لاختيارنـا ،

وليست كذلك إرادة الخالق ، من حيث لا يجوز عليه تعالى ، أي عمل أو صفة كسبية ، على ما هو مقرر في الأصول والتوحيد .

إرادته تعالى أمر نافذ فينا وقضاء مبرم ، لا رادّ له ولا معقب عليه .

وبإرادتنا الكسبية نحتمل مسئولية الاختيار وتبعة الكسب والعمل ، ويقضي الله فينا بإرادته ، على ما أردنا لأنفسنا . فجبرية الإسلام ليست إلا حتمية قانون المصير وعاقبة الكسب ، وإيماناً بثبات السنن الكونية في جزاء العمل وأمانة التكليف .

هذه إشارة موجزة ، إلى ما قدمتُ في مبحث حرية الإرادة ، مما هدَى إليه تدبر كل آياتها في كتاب الإسلام ، على وجه الاستقراء الكامل [1] .

* * *

وأزيد الموقف بياناً ، بعد فتنة التفسير العصري للقرآن ، وما روج في العامة من مدسوس الإسرائيليات ومفتريات مستشرقي اليهود .

ثابت أن القرآن يسند الإرادة الكسبية إلى المخلوقين ، ويدع الإرادة العليا للخالق . ولو كان هذا القرآن من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ويهود المستشرقين لا يؤمنون بأن القرآن وحي إلهي ،فكان أن رأوا في مسألة الجبر والاختيار تناقضاً صريحاً ، إذ شق عليهم مع إنكـــار الوحي ، أن يفهموا تقرير القرآن لإرادةٍ كسبية للإنسان ، وإرادة إلهية ، حاكمة قاضية نافذة .

كتب المستشرق اليهودي المجري « جولدتسيهر » [2] :

---

(١) بتفصيل ، في : (مقال في الإنسان) دار المعارف ١٩٦٩ .
و (القرآن وقضايا الإنسان) دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٢ .

(٢) كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) الترجمة العربية للمشايخ محمد يوسف موسى ، وعبد العزيز عبد الحق ، وعلى حسن عبد القادر . نشر دار الكاتب المصري بالقاهرة ١٩٤٦ ص ٧٩ وما بعدها .

« وليس في الإسلام على ما نرجح ، مسألة مذهبية يمكن أن نستخلص بشأنها من القرآن تعاليمَ متناقضة كتلك التي نبحثها الآن: فالعبارات الجبرية العديدة يمكن أن تعارَض بعبارات للنبي (؟ !) تدل على أن الله ليس هو الذي يضل النفوس ، بل هو الشيطان الرجيم العدو الغرور — سورة الحج ٤ ، فاطر ٥ ، فصلت ٣٦ ، الزخرف ٣٧ ، المجادلة ١٩ ، .. —

« لقد أمكن لنا أن نثبت أن القرآن يمكن أن يُتّخذ سنَداً لأشد وجهات النظر تعارضاً ، في مسألة من أهم المسائل في الأخلاق الدينية . وكان من حسن الحظ أن الأستاذ هوبرت غريمه Grimme, Hubert الذي تعمق في تحليل علم الكلام القرآني ، قد وجد إيضاحاً منيراً يمكن أن يخرجنا من هذه الحيرة والتيه : لقد رأى أن المذاهب المتعارضة والمتضادة التي عرضها محمد في مسألة حرية الإرادة والقدر ، ترجع إلى أزمان مختلفة من نشاطه النبوي ، وتتفق والتأثيراتِ التي أوحتْها إليه الظروفُ والأحوال المختلفة في كل فترة من الفترات . ففي الأزمان الأولى للعصر المكي ، كان يقبل تماماً حرية الاختيار والمسئولية . ولكنْ في المدينة ، أخذ يتوغل شيئاً فشيئاً في مذهب الجبر . والتعاليم الأكثر جبرية ترجع إلى الفترة الأخيرة[1] — غريمه في : محمد ، ص ١٠٥ ط مونستر ١٨٩٥ — إلا أن عاطفة شعور عدم التبعية وعدم الاستقلال الذي يسود كلَّ ميادين الوجدان الإسلامي ، كان بلا ريب في صالح انتصار مذهب نفي

---

(١) أشار المترجمون هنا ، إلى ما في هذا من جري وراء الظن والوهم : ففي آخر (سورة الدهر) المكية : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وهذه متمسك لأهل الجبر : هامش ص ٨٣ .
والرد بهذه الآية وحدها ، يوهم من لا علم لهم بالقرآن ، أنها الآية المكية الوحيدة التي فيها متمسك لأهل الجبر ، ثم هو لا يرد على ما يتعلق بالمدني من آيات الجبر وحده على زعمهم .
والحق أن أكثر السور القرآنية ، مكية ومدنية ، فيها إلزام بالإرادة الكسبية ، وقضاء بالإرادة الإلهية . ترى هذا في السورة الواحدة ، بل ربما في الآية الواحدة ، فارجع مثلا إلى سور المدثر ، الشمس ؛ البروج ، الليل ، الملك ، القمر ، النجم ، الشورى ، غافر ، الزمر — مكية . سور : الإنسان ، محمد ، الحديد ، المائدة ، النساء ، آل عمران ، التوبة — من المدنيات.

حرية الإرادة والاختيار . وكان من ذلك أن رأوا أن الفضيلة والرذيلة والثواب والعقاب تتعلق تعلقاً مطلقاً برحمة الله ، وإرادة الإنسان ليس لها تقدير أو اعتبار في هذه الناحية . ولكن من وقت مبكر جداً ، نرى أن هذا الفهم أو التصور لقدر الله قد أزعج النفوس التقية التي كانت لا تستطيع أن ترتاح إلى الإلــه المطلق السلطان الذي في الفكرة الشعبية السائدة . وقد ساهمت التأثيرات الخارجية أيضا في هذه الوساوس التقية وفي تأييدها وتثبيتها شيئاً فشيئاً. أما أقدم احتجاج على القدر الأزلي المطلق ، فقد أتى من الإسلام في سوريا ، وقد عُلِّل ظهوره أحسن تعليل حسب ما يراه « كريمر Kremer » في ــ الخصائص الأساسية لتاريخ الحضارة في البلاد الإسلامية ص ٧ ط ليبزج ١٨٧٣ ــ بأن العلماء المسلمين القدامى تلقوا من علماء الكلام أو اللاهوت المسيحيين ، ما حملهم على الشك في القدر الأزلي المطلق . وذلك أنه بالتدقيق ، كان الجدل والمشاحة في هــذه النقطة من المذهب الكلامي اللاهوتي ، يشغل عقول اللاهوتيين المسيحيين في الكنيسة الشرقية . فدمشق ، المركز العقلي للإسلام في الخلافة الأموية ، كانت في الوقت نفسه مركز التفكير النظري في القدر ، وفي المذهب الجبري أيضاً . ومن هناك انتشر سريعاً في ميدان أكثر اتساعاً ....

« وإذا كان القرآن الكريم يمكن أن يمدنا بحجج للفرقتين أو الطائفتين ، فإن رواية أسطورية كانت قد نمت في الإسلام ، كنوع ٍ من تفسير التوراة ، من زمن سابق جداً أو في أثناء هذه المناقشات . تعتبر مناسبة للذين يذهبون مذهب تحديد الأفعال وتعيينها منذ الأزل . بحسب هذه الرواية ــ الأسطورية ــ يكون الله أخرج ، فور خلق آدم ، من جوهره الجثماني الجسيم الضخم ، جميع ذريته في صورة مجموعات صغيرة من النمل . ويكون من هذه اللحظة قــد عيّن طوائف الناجين والهالكين . هذه الطوائف التي جعلها تستقر في الناحية اليمنى أو اليسرى من جسم أول مخلوق . وكل جنين من هذه الذرية ، له إذن قدره الحيوي يكتب بوساطة ملك خاص يعيش لهذا العمل ، منقوش على الجبهة ! وهي فكرة مأخوذة عن الهند ــ مجلة المستشرقين الألمان : مجلد ٥٧ ص ٣٩٨ ــ

أي قُدِّر له ما يكون من السلامة أو الهلاك ، وما سيكون منه وله . وهكذا نرى هذه الرواية المتعلقة بعلم الآخرة ، تصدر منطقياً عن تصورات وأفهام قدرية ، فالله يرسل المذنبين الآثمين المساكين إلى النار ولا يبالي ، ويرسل آخرين للجنة ولا يبالي ، وإن كان حق الشفاعة وحده ، المعترف به للأنبياء ، يتمثل هنا كعنصر مخفف لهذا القدر المطلق . وكانت التمثيلات Représentions التي تعتبر أسساً لهذه الأفهام ، متأصلة عميقاً في نفس الشعب وعقليته ، إلى حد لا يسمح للمذهب المعارض : الحرية والمسئولية ، أن يجد جماعة كبيرة من الأنصار ، مما أوجب عليهم الدفاع عن أنفسهم بشدة، ضد خصومهم الذين يستغلون في صالحهم الشرح القديم المألوف للنصوص المقدسة ، والأساطير الشعبية »

* * *

ولا يخفى ما في كلامه من خلل المنطق وضلال المنهج وعثرات الهوى :

* دارس القرآن ، مسلماً أو غير مسلم ، ملزم منهجياً بأن ينظر فيه بوصفه وحياً ، حيث لا مجال لفهم نص ، أي نص ، بمعزل عن طبيعته والمصدر الذي يُقرر مبلغُه أنه تلقاه عنه .

لكن جولدتسيهر الذي يؤمن بالتوراة كتاباً منزلاً ، يتكلم عن القرآن مفروغاً من كونه كلام محمد — صلى الله عليه وسلم — ويمضي في عرض القضية على هذا الأساس ، وكأنه أمر مُسلَّم به لا يحتاج إلى مناقشة ، وبديهية لا يختلف عليها اثنان !

وثابت تاريخياً أن عُلماء الكلام المسلمين ، سبقوا اللاهوتيين المسيحيين في النظر في مسألة الإرادة والقدر ، وسائر المسائل التي كانت مشغلة الفكر الإسلامي ، وفي وهج النشاط الكلامي ، في العقائد والأصول والتوحيد ، نضجت الفلسفة الإسلامية فقدمت منهجها الدقيق في التوفيق بين العقل والدين ،

حيث وصل به « ابن رشد » في المغرب الإسلامي إلى مداه البعيد الذي كـان منطلقاً للفكر الأوروبي وملاذاً له في حيرته المضنية بين الكنيسة والعقل . وقد أثبت المستشرق الأسباني « القس ميجويل أسين بلاثيوس » أن كتب ابن رشد وصلتْ إلى « توماس الاكويني » في مؤلفات « موسى بن ميمون » اليهودي الأندلسي ، ثم في دراسات الأب ريموند مارتان ، رئيس القسس الدومينكان الذين تخصصوا في دراسة الفكر الإسلامي في أصوله العربية وقدموا ثمار دراستهم ناضجة إلى توماس الاكويني فدخل بها التاريخ الديني بطلاً منقذاً للكنيسة التي رفعتْه إلى مرتبة القداسة .

وثابت تاريخياً كذلك ، أن حركة الإصلاح الديني في أوربا ، تأثرت إلى مدى بعيد ، بالفكر الإسلامي[1] .

فكيف انعكس الوضع عند جولدتسيهر وأمثاله ، فصار الإسلام مديناً بفكرة الحرية والمسئولية ، إلى رجال اللاهوت والكنيسة ؟

واختل منطقه : ففي الفقرة قبلها ، أخذ بقول « غريمـه » إن القرآن في العصر المكي ، كان يقبل تماماً حرية الاختيار والمسئولية .

ثم ما لبث أن اعتمد رأي « فون كريمر » في أن الكلام في هذه الحريـة والمسئولية ، بضاعة لاهوتية مسيحية ، تلقاها المسلمون في العصر الأموي ، من رجال الكنيسة الشرقية في دمشق .

وهو تناقض صريح في القول ، يرد بعضُه بعضاً !

وبعدُ وقبل ، فعم يتكلم « جولدتسيهر » وشيعته ؟ عن القرآن أو عما دُسّ عليه ؟ إن الحدود تتساقط في فهم هؤلاء القوم وكتابتهم ، فلا يكاد يتميز ما في القرآن ، عما في الإسرائيليات والأساطير الشعبية .

* * *

---

(١) بتفصيل في : (صلة الإسلام باصلاح المسيحية) لأستاذنا أمين الخولي . قدمه إلى مؤتمر تاريخ الأديان في بروكسل سنة ١٩٣٥ ، وطبعه الجامع الأزهر مترجماً عن الألمانية .

أما والكلام عن الإسلام ، فليعلم مَن لا يعلم، أن ليس في كتابه لفظ التواكل بأي صيغة من الصيغ على الإطلاق ، وإنما الذي فيه توكُّل على الله مسبوق بالعزم ومشروطاً به :

(وإذا عزمتَ فتوكلْ على الله ، إن اللهَ يحب المتوكلين)

آل عمران : ١٥٩

والمتوكلون على الله في القرآن ، هم المصطفى والمؤمنون المتقون ، الصابرون العاملون . وهذا التوكل لا يعطل السعي ، بل يحفزه بالعزم ، والإيمان بأنهم على الحق :

(فتوكلْ على الله إنك على الحق المبين)

النمل : ٧٩

وهو يُوجِّه سعيَ المؤمن إلى الخير ويلهمه الرشاد ، فالمتوكل على الله يراقب ربه في عمله وقوله ومسعاه ، فلا يخون ولا يزيف ولا يضلل . ويعطيه التوكل على خالقه زاداً من الثقة في نجاح السعي الصالح ، ويؤنسه ببشرى أجر عمله الطيب :

(نِعْمَ أجرُ العاملين الذين صبروا وعلى ربِّهم يتوكّلون)

ثم إن التوكل على الله، وتسليم المقادير إليه تعالى بعد بذل الجهد المستطاع ، يأخذ المؤمن بالصبر على المصائب والنكبات ، ويقيه من الانسحاق عند

خيبة الرجاء ، واليأس عند صدمات الفشل ، إذ يعزيه أنه بذل جهد الطاقة وأخلص النية والعمل ، ثم سلم أمره إلى خالقه .

في (باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير إليه) من صحيح مسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خيرٌ . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ... »

وروى الإمام الزهري الحديث الشريف :

« دخلت امرأة النارَ في هِرةٍ حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض ، حتّى ماتت هزلاً »

ثم قال : لئلا يتكل مؤمن ولا ييأس رجل .

* * *

ونحن المتدينين ، نؤمن حقاً بأن هذا الكون يجري على سنن ثابتة وفق المشيئة الإلهية . سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وهو تعالى: يخلق ما يشاء ويختار ، يؤتي الملكَ مَن يشاء ويعزُّ من يشاء ويذل مَن يشاء ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

ولا يرتاب مؤمن في أن الله لو شاء لأمطرنا ذهباً وفضة ونحن نيام ، ولو شاء لانتصر لنا من عدونا وعدوه ونحن قعود مستريحون ، ولو شاء لهدى الناس كلهم وجمعهم على الهدى وجعلنا أمة واحدة ، ولو شاء لردَّ عن آدم وذريته فتنة الشيطان وجنوده ...

لكنه تعالى لم يشأ ، لتمضي سنتُه في خلقه تكليفاً وابتلاءً :

(ولو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدة ، ولكنْ ليبلوكم فيما آتاكم)
المائدة : ٤٨

(الذي خلق الموتَ والحياةَ ليبلوَكم أيُّكم أحسنُ عملا)

الملك : ٢

(ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجَعون)

الأنبياء : ٣٥

(ذلك ولو يشاءُ اللهُ لانتصر منهم ولكنْ ليَبلوَ بعضَكم ببعضٍ ، والذين قُتِلوا في سبيلِ اللهِ فلن يُضِلَّ أعمالَهم)

محمد : ٤

(ولنبلوَنَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم)

محمد : ٣١

(أم حسبتم أن تُترَكوا ولمّا يعلمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون اللهِ ولا رسولِه ولا المؤمنين وَليجةً ، واللهُ خبير بما تعلمون)

التوبة : ١٦

(وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوّاً شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غرورا ، ولو شاء ربُّك ما فعلوه فذرْهم وما يفترونَ * ولتصغيَ إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون)

الأنعام : ١١٢ — ١١٣

والقرآن يثبت للمخلوقين مشيئتهم الكسبية ، تقريراً لحتمية الجزاء ونفاذاً لسنة الابتلاء :

(كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره)

عبس : ١٢ — المدثر : ٥٥

(إنها لإحدى الكُبَر * نذيرا للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر * كل نفسٍ بما كسبتْ رهينة)

المدثر : ٣٧

(إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلا)

الإنسان : ٢٩

(إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم)

التكوير : ٢٨

(ذلك اليومُ الحقُّ فمن شاء اتخذ إلى ربّه مآبا)

النبأ : ٣٩

(وقل الحقُّ من ربّكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ ...)

الكهف : ٢٩

(قل اللهَ أعبدُ مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسَهم وأهليهم يومَ القيامة ، ألاَ ذلك هو الخسران المبين)

الزمر : ١٥

(اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير)

فصلت : ٤٠

وتمضي سنته تعالى فينا ، ابتلاءً وفتنة وامتحاناً وتمحيصاً ، لا تتعلق مشيئته العليا بنقض سُننه في خلقه ، الأوّلين منهم والآخرين .

(فهل ينظرون إلاّ سُنَّةَ الأوّلين ، فلن تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً ولن تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تحويلا)

فاطر : ٤٣

(قد خلَتْ من قبلِكم سُنَنٌ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين)

آل عمران : ١٣٧

(سنة الله في الذين خلَوا من قبلُ ولن تجدَ لِسُنةِ اللهِ تبديلا)

الأحزاب : ٦٢

فهل كان المسلمون في العصر الأموي ، وهذا كتابُ الله في صدورهم وبين أيديهم ، بحاجة إلى كلام اللاهوتيين في الكنيسة الشرقية بدمشق ، عن حرية الاختيار والمسئولية ؟

كأن القرآن لم يكن هناك !

وكأن المسلمين لم يسمعوا بحديث نبيهم عليه الصلاة والسلام ؟ يرويه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالساً ، وفي يده عودٌ ينكث به ، فرفع رأسه وقال : « ما منكم من نفس إلا وقد عُلِم منزلها من الجنة والنار »

قالوا : يا رسول الله ، فلمَ نعمل ؟ أفلا نتكل ؟

قال : لا ، اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لما خُلِق له » ثم قرأ : (فأما من أعطى واتّقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليُسرى * وأما من بَخِلَ واستغنى * وكذّب بالحسنى * فسنيسره للعسرى)

(صحيح مسلم : كتاب القدر)

وعن معاذ بن جبل ، قال :

« كنتُ رِدْفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا معاذ تدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا . وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب مَن لا يشرك به شيئا . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا »

(صحيح مسلم : كتاب الإيمان)

* * *

التواكُل دخيل على الشخصية الإسلامية .

وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ليخشى على أمته من الاتكال على عبادة الله وحده ، لولا أن فيهم من أسلموا ، ويسلمون، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . وحسب الإيمان رقيباً على عمل المؤمن وسلوكه ، هو الذي يردعه عن الكبائر والفواحش ، ويرده إلى التقوى ، بالندم والتوبة . عن يقينٍ بأن الإصرار على الذنب ، ليس من الإيمان !

وإذ يقول المؤمن في كل أمر تتجه إليه مشيئته ويستقر عليه عزمه : أفعله بمشيئة الله .

فذلك ليذكر الله في كلِّ ما يستقبل من أمره ، فيتزود له بالإخلاص والتقوى ، وطمأنينة الإيمان بثبات سنته تعالى في العمل الصالح يؤتى ثمره ، كما أن العمل السيء يبوء بالخسران :

(ولا تقولنَّ لِشَيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاءَ اللهُ وقلْ عسى أن يَهدِيَنِ ربي لأقربَ من هذا رشدا)

الكهف : ٢٤

(وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون وستُرَدُّون إلى عالِمِ الغيبِ والشهادة فينبئُكم بما كنتم تعملون)

التوبة : ١٠٥

(إن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ إنا لا نُضيع أجْرَ من أحْسَنَ عَمَلاً)

. الكهف : ٤٠

(فمَنْ كان يرجو لِقاءَ ربِّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادةِ ربِّه أحدا)

الكهف : ١١٠

(ومن يعمل الصالحاتِ وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما).

طه : ١١٢

(فمن يعمل من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كفران لسعيه)

الأنبياء : ٩٤

(وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعَى * وأن سعيَه سوف يُرَى * ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى * وأنَّ إلى ربِّك المنتهى)

النجم : ٣٩ — ٤٢

(قل هل أنبئكم بالأخْسَرين أعمالا * الذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدنيا وهم يحسَبون أنهم يُحسنون صنعا »

الكهف : ١٠٣ — ١٠٤

* * *

والأصل في العقيدة الإسلامية ، أنه ما من إنسان منا غير مسئول عن عمله .

ذلك لله تعالى وحده، لا لأي مخلوق من مخلوقاته، سبحانه (لا يُسألُ عمّا يفعلُ وهم يُسألُون) (وإنه لَذِكرٌ لك ولِقومِك وسوف تُسْألون)

والقــولُ بعدم المسئولية ، تعطيلاً للمشيئة الكسبية بالمشيئة الإلهية العليا ، أقربُ إلى منطق الكفار ، والمشركين ، والمرتابين في حتمية الحساب والجزاء ، بصريحِ الآيات المحكمات :

(سيقولُ الذين أشركوا لو شاء اللهُ ما أشركْنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ، كذّب الذين من قبلِهم حتى ذاقوا بأسَنا ، قل هل عندكم من عِلْمٍ فتُخرِجوه لنا ، إنْ تتبعون إلا الظنّ وإن أنتم إلا تَخْرُصون)
الأنعام : ١٤٨

(وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من عِلْمٍ إنْ هم إلا يَخرُصون)

الزخرف : ٢٠

(وإذا قيل لهم أنفِقوا مما رزقكم اللهُ قال الذين كفروا للذين آمنوا أنُطعِمُ من لو يَشاءُ اللهُ أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحةً واحدة تأخذُهم وهم يَخصِّمون * فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلِهم يَرجعون)
يس : ٤٧ — ٥٠

وسبقُ علمِه تعالى بما نعمل ، لا يمنع الدعوةَ والبلاغَ والتكليفَ ، إلزاماً بالحجة . ونحن في واقع حياتنا ، ننصح أبناءنا ونحذر وننذر ، مع سبق علمنا بأن النصيحة لن تجدي ، وأن التحذير لن يحول دون مضيهم على غلوائهم فيما ننكره عليهم ،

إلزاماً بالتبعة وتقريراً للمسئولية، فلا يقول أحدهم : لقد كنت في غفلة عن هذا فلمَ لم تنبهني وتحذرني ؟

وكذلك لا يمنع علمه تعالى بأعمالنا،أن نُسأل فيها وعنها. القوانين الوضعية، في أحدث نظمها ، تبدأ محاكمة المتهم بسؤاله فيما اتهم به ، مع تلبسه أو اعترافه . ويحرص القضاة على أن يكون إقرارُ المتهم ، أول ما يؤخذ به في محاكمته .

الإسلام يرسخ مبدأ الإقرار بالمسئولية ، والإلزام بالحجة . وهو مبدأ سرى على الإنسان من بدء الخليقة : حذر الله تعالى أبانا آدم من المعصية — مع سبق علمه تعالى بأنه لن يلبث أن يعصي — إلزاماً بالحجة .

وبعث رسله تترى، إلى أمم البشرية، مع سبق علمه تعالى بأن من هذه الأمم ضالين ومكذبين ، فتلزمهم الحجةُ، ويكون الرسول على أمته شهيدا :

(ويومَ نبعثُ في كلِّ أمةٍ شهيداً عليهم من أنفُسِهم وجئنا بكَ شهيداً على هؤلاء ، ونزّلنا عليك الكِتابَ تِبيَاناً لكل شيءٍ وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين)

النحل : ٨٩

وسئل المسيح عليه السلام فيما فُتنت به طوائف من أمته ، اتخذوه وأمّه إلهين ، مع علمه تعالى ببراءة المسيح من هذه الفتنة ، إلزاماً للقوم بالحجة وشهادة من نبيهم عليهم :

(وإذ قال اللهُ يا عيسى بنَ مريم أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذوني وأمّي إلهين

من دونِ الله ، قالَ سبحانك ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليس لي بحقٌ ، إن إن كنتُ قلتُهُ فقد علِمتَه ، تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسِك ، إنك أنت علامُ الغيوب . ما قلتُ لهم إلا ما أمرتَني به، أن اعبدوا الله ربي وربَّكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم فلما توفَيتَني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ، وأنت على كلِّ شيءٍ شهيد)

المائدة : ١١٦ — ١١٧

* * *

ومبدأ ثبات السنن الإلهية ، ينفي عن العقلية الإسلامية ما يقال من تعطيلها للأسباب . فكما لا تتعلق المشيئة العليا بنقضِ سنته تعالى في خلقه ، لا تتعلق بنقض سائر سننه الثابتة التي يجري عليها نظام الكون ، ومنها قانون السببية ، وقوانين الطبيعة .

لو شاء تعالى لجعلَ ماء المُزْنِ أُجاجاً ، والليلَ أو النهارَ سرْمداً إلى يوم القيامة ، ولسكَنَ الظلُّ لا يمتد ، وسكنت الريح لا تتحرك ، وتخلف النظام الكوني الثابت لدورات الزمن وحركات الأجرام في الفلك :

(ألم ترَ إلى ربِّك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ..)

الفرقان : ٤٥

(ومن آياته الجَوارِ في البحرِ كالأعلام * إن يشأ يُسْكِنِ الريحَ فيظللْنَ رواكدَ على ظهرِه ..)

الشورى : ٣٣

(أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاءُ لجعلناه حُطاماً فظَلتُم تَفَكّهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماءَ الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المُزْنِ أم نحن المُنزِلون * لو نشاءُ جعلناه أُجَاجاً فلولا تشكرون .. »

الواقعة : ٦٣ — ٧٠

لكنه سبحانه لم يشأ إلا أن تمضي سُنَنُه الكونية ثابتة مطردة ، لا تنقضها المشيئة العليا :

(لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ ، وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون)

يس : ٤٠

فإذا اختلتْ سُنَن الكون واضطرب نظام الفَلَك ، كأن تُجمع الشمسُ والقمر وتنتثر الكواكب وتسير الجبال . وتُسجّر البحار ...

فذلك ومثله ، في كتاب الإسلام ، إيذانٌ بانتهاء الحياة على هذه الأرض ، وقيام الساعة التي لا يعلم غيبَها إلا الله وحده .

* * *

حدث المغيرة بن شعبة ، قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يومَ مات ابنهُ ابراهيم . فقال ناس : إنها انكسفت لموته . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموتِ أحد ولا لحياة أحد » [1] .

ألا وإن المؤمنين منا لا يُلقون بأيديهم إلى التلهكة ، ولا يتصورون أن التوكل على الله يُعطل الأسباب كما يزعم فيهم مفسر عصري للقرآن، يقول : « إننا إذا توكلنا على الله فلن نخاف الحربَ ولا القنبلة الذرية ولا المرض ... الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع ، وهو الذي خلق العقرب والسم والوردة ، وهو الذي ينشر العبير وينشر السمَّ في العروق .. هو مناط الهلاك والنجاة لا راد لقضائه ، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته »

ويقود أحدُنا سيارته ، بعد أن يطمئن إلى كفاية الوقود فيها وسلامة أجهزتها وعجلاتها ، لا يكل هذا كله إلى الله الذي عليه يتوكل المؤمنون ، بل

---

(١) أخرجه مسلم في (كتاب الكسوف) وانظره أيضاً في (الاستيعاب لابن عبد البر) ١٩٢١/٤. ط الحلبي بالقاهرة .

يسأله تعالى السلامة من أخطار الطريق ، بعد كل الحرص عليها والأخذ بأسبابها !

ومنهم من يسافر على الطائرة ، واللهُ معه ، ثم لا يخطر على باله أن يقذف بنفسه منها ، وهي في الجو ، دون مظلة واقية !

ومنهم من يركب السفينة ، باسم الله مجريها ومرساها ، فلا يستغني عند الخطر عن حزامِ النجاة وقاربها ، غير مبالٍ باليم ، مع جهله بالسباحة !

في هذا كله ، وفي مثله ، يأخذ المؤمنون بالأسباب ، ويتقون مظان التهلكة ، ويستعينون بالله ، ويسألونه السلامة واللطف في القضاء ...

* * *

وما يتعلق به متهمو العقلية الإسلامية بالتواكل وتعطيل الأسباب ، من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى » لم يقرؤوه كاملاً ليفهموه على وجهه الصحيح .

الحديث رواه ابن شهاب الزهري ، أن أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا كهانة »

ويحدث كذلك أنه قال : « لا يورد مُمْرِض على مُصِح »

قال أبو سلمة : كان أبو هريرة يحدثهما كليهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم صمت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله : « لا عدوى » وأقام على : « أن لا يورِد مُمْرِض على مُصِح » فقال له الحارث ، ابن عمه أبي ذباب : قد كنت أسمعك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثاً آخر قد سكتَّ عنه . كنت تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى » فأبى أبو هريرة أن يعرف ذلك . »

قال أبو سلمة : ولعمري لقد كان أبو هريرة يحدثنا أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال : « لا عدوى .. » فلا أدري أنَسِيَ أبو هريرة ، أم نسخ أحدُ القولين الآخر »

(صحيح مسلم)

أقول : فإن لم يكن نسيانٌ ولا نسخ ، فإن الوجه في الحديث أن يُفهم — والله أعلم — محمولاً على النهي عن العدوى ، لا على نفيها . بمعنى النهي عن التعرض للعدوى أو تعريض الناس لها .

ومن ثم يكون الحديث الآخر : « وأن لا يدخل مصح على ممرض » تفسيراً لحديث « لا عدوى » .

وهو المفهوم كذلك من قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا طيرة ولا كهانة » لا ينفى أنه قد كانت هناك كهانة ، وأن في الناس من يتطيرون ، بل هو النهي عن التطير وإتيان الكُهان ، مع النهي عن التعرض والتعريض للعدوى .

ونستأنس لفهم « لا عدوى » على النهي ، مفسراً بـ « ولا يدخل ممرض على مصح » بالحديث في وباء الطاعون ، عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « هو عذاب أو رِجز ، عُذِّب به بعض الأمم قبلكم ثم بقي في الأرض ، فيذهب المرةَ ويأتي الأخرى ، فمن سمع به بأرضٍ فلا يقدمن عليه ، وإذا وقع بأرض وهو بها ، فلا يُخرجنّه الفرارُ منه »

النهي عن الدخول بأرض فيها الوباء ، اتقاء العدوى .

والنهي عن الخروج منها ، اتقاء حملِ العدوى إلى من بخارج هذه الأرض الموبوءة .

روى الإمام مالك عن ابن شهاب الزهري . بإسناده إلى عبدالله بن عباس ، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خرج إلى الشام — بجنده — حتى إذا كان

بقرية « سَرْغ » — في طرف الشام مما يلي الحجاز — لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . قال ابن عباس : « فقال لي عمر : ادعُ لي المهاجرين الأولين . فدعوتهم فاستشارهم فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجتَ لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه . وقال بعضهم : معك بقيةُ الناس وأصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء .

« فصرفهم ، ودعا الأنصار فاستشارهم ، فاختلفوا كاختلاف المهاجرين . فصرفهم وقال : ادعُ لي من كان هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح . فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان . قالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء »

فنادى عمرُ في الناس ، بالتأهب للرجوع ، فقال أبو عبيدة ، منكراً : أفراراً من قدر الله ؟ قال عمر ، وكان يكره أن يخالف أبا عبيدة : « لو غيرُك قالها ؟ نعم ، نفر من قدرِ الله إلى قدر الله »

فجاء عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغيباً عن مجلس القوم في بعض حاجته ، فقال : « إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — في الوباء :

« إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .

فحمدِ اللهَ عمرُ ، ثم رجع من « سرغ » عائداً بالناس .

قال ابن شهاب الزهري ، عن سالم بن عبد الله بن عمر ، أن عمر إنما انصرف بالناس ، من حديث عبد الرحمن بن عوف .

وفي (باب اجتناب المجذوم ، ونحوه) الحديثُ عن عمرو بن الشريد

السلمي عن أبيه قال : إنه كان في وفد بني ثقيف — حين جاءوا يبايعون النبي عليه الصلاة والسلام . رجلٌ مجذوم . فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا قد بايعناك فارجع » .

وعن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اقتلوا الحيّات ، وذا الطُّفتّين والأبتر ، فإنهما يستسقطان الحبالى ، ويطمسان البصر » .

ذو الطفتين والأبتر : ضربان من الحيات ، يخطفان البصر ويطمسانه ، بمجرد نظرهما إليه .



وقد أرى أن الخطأ الأساسي في هذه القضية ، هو وضع الدين مقابل العقل ، والإيمان مقابل العلم ، وكأنهما نقيضان لا يمكن أن يجتمعا في الإنسان إلا من قبيل تصادم الأضداد !

وذلك ما ترفضه العقيدة الإسلامية التي حسمت الخصومة بين الدين والعقل، إذ هما عنصران جوهريان في الإنسان ، يتلازمان ولا يتناقضان .

العقل مناط إنسانيته الناطقة ، إذا عُطِّل بالجهل والغفلة والعمى، مُسِخت بشرية الآدمي فهبط إلى دونية الدواب العجماء :

(إن شر الدوابِّ عند الله الصمُّ البُكم الذين لا يعقلون) .

والحواس ، أدوات الإدراك ، لا ينظر إليها كتاب الإسلام من حيث هي أجهزة حسية فحسب ، بل هي فيه وسائل وعي وتمييز وبَصَر .ومهما يعرض لها من خلَلٍ يعطل وظيفتها العضوية ، فليس بحيث يطمسن إنسانية البشر . وإذا لم يمكن تدارك الخلل بالطب والعلاج ، فإن الآدمي يظل إنساناً ، ولو كان قد وُلد أكمه وأعمى ، أو أخرس وأصم ؛ وفي ابن أم مكتوم نزلت آيات :(عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكّر فتنفعه الذكرى) .

وفي « يعقوب » وبنيه ، نتلو آيات يوسف :

(قال بل سوَّلت لكم أنفسُكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم)

(وتولى عنهم وقال يا أسفَا على يوسُفَ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تَفتأ تذكرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهالكين * قال إنما أشكو بَثّي وحُزني إلى الله ، وأعلمُ من اللهِ ما لا تعلمون) يوسف : ٨٢ — ٨٦

* * *

إنما ينطفىء جوهر الإنسان بعمى البصيرة وصمم الوعي وضلال الرشد .
فالعمى عمى البصيرة ، والبكم سكوت على منكر وكتمانٌ لكلمة الخير ، والصم صدٌ عن دعاء الحق والهدى ، وغفلةٌ عما يُرى من آيات العظة والاعتبار :

(لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ ، أولئك هم الغافلون) .
الأعراف : ١٧٩

(ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تُسمِع الصمَّ ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تَهدِي العُمْيَ ولو كانوا لا يُبصرون) ؟.
يونس : ٤٢ — ٤٣

(إنك لا تُسمِعُ الموتى ولا تُسمِعَ الصمَّ الدعاءَ إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العُمْيِ عن ضلالتهم إنْ تُسمعُ إلا مَن يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .
النمل : ٨٠ — ٨١

* * *

وكذلك المرض ، ليس من داء عارض أو علة في أعضـــاء الجسم يمكن أن تعالَج وتُداوى : (وإذا مرِضتُ فهو يشفينَ)

وقد يعيا بها الطب والعلاج ، ويبقى المريض إنساناً ، ولا حَرَجَ عليه فيما لا يطيق من تكاليف :

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج)
الفتح : ٧

(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوا للهِ ورسولِه ، ما على المحسنين من سبيل ، واللهُ غفور رحيم) .
التوبة : ٩١

المرض العُضال والداءُ الخبيث ، هو فساد القلب بالكفر والنفاق والزيف والشهوة والقسوة والضغينة :

(ومن النَّاسِ مَن يقول آمنا باللهِ واليوم الآخير وما هم بمؤمنين * يخادعون اللهَ والذين آمنوا وما يَخدعون إلا أنفسَهم وما يشعرون * في قلوبِهم مرضٌ فزادهم اللهُ مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » .
البقرة : ٨ — ١٠

(أم حسب الذين في قلوبِهم مرضٌ أنْ لن يخرج اللهُ أضغانَهم) ؟
محمد : ٢٤

(وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبِهم مرضٌ ما وعدنا اللهُ ورسولُه إلا غروراً) .
الأحزاب : ١٢

(يا نساء النبي لستُن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضَعْنَ بالقولِ فيطمعَ الذي في قلبِه مرضٌ وقلن قولاً معروفاً) .
الأحزاب : ٣٢

* * *

والموتُ الطبيعي الذي هو تعطل الحياة في الجسم ، مقدور على الأحياء جميعاً و (كل نفس ذائقة الموت) .

(إنك ميت وإنهم ميتون) .

وفي الموتى أحياءٌ بصالح أعمالهم وطيبِ ذكراهم ومجد استشهادهم في سبيل الحق .

لكن في المحسوبين على الأحياء ، موتى القلوب والضمائر ، وهذا هو الموتُ الملعون :

(فإنك لا تُسمِعُ الموتى ولا تُسمع الصم الدعاء)

(وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلماتُ ولا النور * ولا الظلُّ ولا الحَرور * وما يستوى الأحياءُ ولا الأموات ، إن اللهَ يُسمِعُ من يشاءُ وما أنتَ بمُسمِعٍ مَن في القبور * إن أنت إلا نذير) .

فاطر : ١٩ — ٢٣

* * *

والعقلُ هو الذي يحمي الإنسان من مثل ذلك الداء العضال ، لأن العقل مناط الوعي والرشد والبصر والتمييز والإدراك . من ثم يرتبط الإيمان بالعقل في العقيدة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً ، فكتاب الإسلام يتجه إلى العقل في تأييد الدين وترسيخ الإيمان. والله يبين الآيات لقوم يعقلون، ويؤمنون . ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون ويبصرون ويفقهون ويوقنون ، ويسوق العبرة لأولى الألباب ، والعالمِينَ ، لأنهم المرجوون للنظر في آيات القدرة الإلهية ، وتدبر النظام الكوني المحكم ، والإيمان بأنه لم يوجد عبثاً ، ولا يمكن أن يسير بتلقائية عشواء :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون) .

العنكبوت : ٤٣

(إن في خلق السمواتِ والأرض واختلافِ الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناسَ وما أنزل اللهُ من السماء من ماءٍ فأحيا به

الأرضَ بعد موتِها وبثَّ فيها من كلِّ دابة وتصريفِ الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون) .

البقرة : ١٦٤

(إن في خلق السموات والأرضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولي الألباب * الذين يذكرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرضِ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقِنا عذابَ النار) .

آل عمران : ١٩٠ — ١٩١

(اللهُ الذي رفعَ السمواتِ بغيرِ عَمدٍ تَروْنها ثم استوى على العرشِ وسخّر الشمسَ والقمرَ كلٌ يجري لأجلٍ مسمى ، يدبر الأمرَ يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربّكم توقنون * وهو الذي مدّ الأرضَ وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً . ومن كلِّ الثمراتِ جعل فيها زوجين اثنين يُغشِي الليلَ والنهارَ ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون * وفي الأرض قِطعٌ متجاوراتٌ وجنات من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ يُسقَى بماء واحدٍ ونفضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الأكُلِ ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون) .

الرعد : ٢ — ٤

(هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسيمون * ينبتُ لكم به الزرعَ والزيتون والنخيلَ والأعنابَ ومِن كلِّ الثمرات ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مُسخّراتٍ بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

النحل : ١٤ — ١٦

(يُخرجُ الحيَّ من الميتِ ويخرجُ الميتَ من الحيِّ ويُحيِي الأرضَ بعد موتِها ، وكذلك تُخرَجون * ومن آياته أن خلَقكم من تراب ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون * ومن آياتهِ أن خلق لكم من أنفسِكم أزواجاً لتسكنوا إليها

وجعل بينكم مودةً ورحمة، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون * ومن آياته خلقُ السموات والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانِكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامُكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرقَ خوفاً وطمعاً وينزِّل من السماءِ ماءً فيحيِي به الأرضَ بعد موتها،إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون) .

الروم : ١٩ — ٢٥

(إن في السموات والأرض لآياتٍ للمؤمنين * وفي خلقِكم وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل اللهُ من السماءِ من رزقٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها وتصريف الرياح آياتٌ لِقوم يوقنون * تلك آياتُ اللهِ نتلوها عليك بالحقِّ فبأيِّ حديثٍ بعداللهِ وآياتهَ يؤمنون *)

الجاثية : ٣ — ٦

* * *

وضلال الوثنية ، كان في حكم القرآن ، تعطيلاً للعقل . حجب عن الوثنيين سفاهة ما يعبدون من أصنام وأوثان لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عن أن تملك لعابديها شيئاً أي شيء :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللهُ قالوا بلْ نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أوَلوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون * ومَثَلُ الذين كفروا كَمَثَلِ الذي يَنعقُ بما لا يسمعُ إلا دعاءً ونداءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون)

البقرة : ١٧٠ — ١٧١

(وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحابِ السعير * فاعترفوا بذنبِهم فسُحقاً لأصحابِ السعير) .

الملك : ١١ — ١٢

ولله الحجّةُ البالغة ، وما عمِيَ عنها إلا مَن عطلوا عقولَهم : (وقالوا قلوبُنا في أكِنّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذانِنا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب)
فُصّلت : ٥

* * *

والسُّنّةُ ، الأصلُ الثاني للشريعة الإسلامية . يضبط علماؤها شروط الحديث الصحيح ، فتتعلق قواعدهم بصحة الإسناد وعدالة الرواة وضبطهم ، فمتى اتصل إسناد الحديث برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — من غيرِ شذوذٍ ولا عِلة ، فالحديث صحيح على شروطهم.أما المتنُ ، فاشترطوا فيه : « ألا يخالف القرآن والعقل » .

* * *

ويتورط ناس فيزعمون أن تصديق المتدينين بالسمعيات الغيبية ، تعطيل للعقل وإبطال للعلم .

وهذه القضية قد شابها خلط ولبس :

ينبغي أولاً أن نفرق بين الإسلام في أصله النقي . ومدسوس الإسرائيليات ودخيل الخرافات وبدع التأويلات ، فلا يحمل الإسلام وزرَ من يدعون أنهم « يرون الجن شهوداً والملائكة عياناً ، ويُكشف لهم المحجوب من غيب الآخرة »[1] .

كتاب الإسلام ينفي رؤيــة البشر للجن إلا أن يكونوا من أبالسة البشر . وفي التحذير من فتنة الشيطان يقول تعالى خطابا لبني آدم :

(إنه يراكم وقبيلُه من حيث لا ترونهم)

الأعراف : ٢٧

وما يكلم الأبالسة الناسَ إلا وسوسةً كما وسوس إلى أبويهم .
(الأعراف ٣٠ ، طه ١٢٠)

* * *

---

(١) فهم عصري للقرآن : ص ١١٩ – ١٢٢ وقابله على ما في كتاب المستشرق اليهودي جولدتسيهر (العقيدة والشريعة في الإسلام) ص ٦٤ وما بعدها .

والملائكة لا يمشون في الأرض ليراهم كهانُ عصرنا ، وقد جادل الكفار في نبوة رسلٍ من البشر ، فسألوهم ، على وجه التحدي ، أن ينزل الله عليهم من السماء ملائكة :

(ولو شاء اللهُ لأنزل ملائكةً ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » .

المؤمنون : ٢٤

(قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملَكاً رسولا) .

الإسراء : ٩٥

في (صحيح مسلم) عن الصحابي معاوية بن الحكم السُّلَمي ، قال : قلتُ : يا رسول الله ، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكهان . قال : « فلا تأتوا الكهان » قلت : كنا نتطير . قال : « ذاك شيء يجده أحدُكم في نفسِه ، فلا يَصُدَّنَّكم » .

وعن السيدة صفية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أتى عرّافاً فسأله ، لم تُقبل صلاتُه أربعين ليلة » .

وفيه قال القاضي عياض : « كانت الكهانة في العرب على ثلاثة أضرب : أحدها الزعم بأن يكون للإنسان وليٌّ من الجن يأتيه بخبر من الغيب . الثاني أنه يخبره بما يطرأ أو ما يكون في أقطار الأرض ، وما خفي عنه مما قرُب أو بعُد . والثالث المنجمون ، وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس قوةً ما

[كالجلاء البصري ، والتنويم المغناطيسي] . لكن الكذب فيه أغلبُ . ومن هذا الفن العرافةُ ، وصاحبها عراف ، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يَدعي معرفته بها . وهذه الأضرب كلها تسمى الكهانة ، وقد أكذَبَهم كلَّهم الشرعُ ونهى عن إتيانهم » .

ونقل « الرازي » قول الإمام الشافعي :

« من زعَم أنه يرى الجِنَّ أبطلنا شهادته » [1] .

لأنه إما كاذب فهو متهم في خلقه ، وإما صادق في زعمه ، فيكون متهماً في عقله !

ويأتي كاهن من كهان زماننا ، فيمسخ عقول البشر بعامة ، وينشر في الناس ، بعنوان : (فهم عصري للقرآن) رداً على مَن أنكر رؤية الجن والملائكة عياناً :

« وإذا كانت حجته في هذه المزاعم هي أنه لم ير الملائكة ولا الجن ولا الشياطين ، فلماذا يُلزم بها البشريةَ ، وفي هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعَلِمَ الغيبَ شهوداً ؟ هل الأعمى هو الذي يُلزم البصر ؟ أم أن حجة المبصر الواحد تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس إذا رآها مبصر واحد ؟ » ص : ١٢٢ .

ويتطوع فيرشد ملايين العميان ، إلى الوسيلة التي يبصرون بها محجوبَ الغيب :

« ووعد الإنجيل : (اطلبوا تجدوا ، دقوا على الباب يفتح لكم) على أن يكون دقُّ الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال وخلوص النية ، وليس مجرد شقشقة لسان بدعاء تقليدي . وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على

---

(١) الرازي : مناقب الشافعي ، ص ٢١٩ .

أحبابه وأوليائه ، فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيبَ حضوراً ، وتسمع ما لا أذن سمعت ! » ص : ١١٩ .

فهل نحكم على العقلية الإسلامية بمنطق هذا الكاهن العصري ، أو بمنطق الإمام الشافعي ، من وراء اثني عشر قرناً ؟ .

وهل نفهم الإسلام من الكتاب والسنة ، أو من بدع التأويل الماسخ للعصرية والعلم ؟ .

* * *

وكذلك ينبغي أن نتقي في الغيبيات التباسَ ما هو مجال للنظر العقلي والبحث العلمي ، بما يخرج عن نطاقهما .

المسلمون يؤمنون بالغيبيات السمعية ، مما جاء في كتاب دينهم ، ولا يخوضون فيها بغير علم .

فهل يملك العلم أن ينكرها ، فيرجم بالغيب فيما ليس في متناول تجربته ونطاق بحثه ووسائل معرفته ؟.

كلا ، بل يتوقف العلم عن الحكم على أي مجهول ، حتى يصل إليه ويعلمه ، فيخرجه من نطاق الغيبيات الميتافيزيقية . ويسقُط عنه الحظر العلمي ، كما يسقُطُ عنه الحظرُ الديني .

وما من عالم محقق ، لا يؤمن معنا بأن « الظنّ لا يغني من الحق شيئاً » .

وهل يخرج العالم عن أحد اثنين :

أن يكون متديناً فيصدق بما جاء عن هذه الغيبيات في الدين الذي يؤمن به ، ويأبى عليه إيمانه وعقله ، أن يخوض فيما وراء ذلك مما استأثر الله بعلمه ؟ .

أو يكون غير متدين ، فيعصمه علمه من الرجم بالظن فيما لا يعلم ، وإنما حسبه أن يتوقف لا يقول بنفيٍ ولا إثبات ، إذ أن النفي والإثبات ، كليهما ، من الرجم بالغيب .

لقد سئل نبيُّ الإسلام عليه الصلاة والسلام عن كنه الأهلة ، فلم يجب بغير ما تلقى من الوحي :

(يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج) .

صرفَهم عما لا وسيلة إلى العلم به ، إلى النظر فيما هو متاحٌ لهم من عطاءِ الأهلة .

وسُئِل صلى الله عليه وسلم عن الساعة ،وأني له أن يعلم غيبها، وقد استأثر الله بعلمها ! :

(يسألونك عن الساعةِ أيانَ مُرساها * فيمَ أنتَ من ذِكراها * إلى ربِّك منتهاها * إنما أنتَ منذرُ مَن يخشاها * كأنهم يومَ يرَونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

النازعات : ٤٢ — ٤٦

وسأله أحبار يهود عن الروح ما هي ، فما أجاب بأكثر مما تلقى من كلمات ربه :

(ويسألونكَ عن الروحِ ، قل الروحُ من أمرِ ربي وما أُوتيتم من العِلْمِ إلا قليلاً) .

الإسراء : ٨٥

لكن فينا من يجرؤ اليوم على أن يخوض في غيب الآخرة بغير علم ، ويحدد للساعة موعداً « وباق عليه ثلاثون سنة ! » .

ويقدم تفسيراً عصرياً علمياً لآية الدخان : (فارتقب يوم تأتي السماءُ بدخان مبين) برؤيا يوحنا اللاهوتي : ففتح بئرُ الهاوية فصعد دخانٌ من البئر كدخان أتون عظيم ، فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر . وهذا الدخان لا يقتل الناس وإنما يعذبهم خمسة أشهر . وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموتَ ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » .

« إنها ظاهرة طبيعية. يقول عنها القرآن كمايقول يوحنا اللاهوتي» ص ١٤٢

في (باب الدخان) من صحيح مسلم ، عن « مسروق » قال : « كنا عند عبد الله بن عمر ، جلوساً وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تركتُ في المسجد رجلاً يفسر برأيه هذه الآية : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » فقال : يأتي الناسَ يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام .

فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان : يا أيها الناس اتقوا الله ، مَن علِم منكم شيئاً فليقل بما يعلم ، ومن لم يعلم فليقل: اللهُ أعلم. فإنه أعلَمُ لأحدِكم أن يقول فيما لا يعلم : الله أعلم وإن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » .

وقد أجمع أئمة السلف على أن الاجتهاد في التفسير ، وفي العلم بعامة ، محظور على غير « أهل الجهة » علماء الاختصاص . ويسري الحظر على العلماء ، فيما هو من الغيبيات . ونص عبارة السيوطي في (الإتقان) : « أما ما يجري مجرى الغيوب كقيام الساعة ، وكل متشابه في القرآن ، فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره » بل يقتصر فيه على النص [1] .

* * *

هو إذن منطق الإيمان ، يقتضي التصديق بالسمعيات الغيبية ، في حدود ما جاء عنها في نصوص الدين الذي نؤمن به . لا نتجاوزه إلى ما لا علم لنا به .

وهي حرمة العقل ، جوهر الإنسانية الناطقة ، نفصل بها بين ما هو مجال للنظر العقلي ، وما نكتفي فيه بالتصديق سمعاً .

وهي حرمة العلم ، أشرف خصائص الإنسان ، تحظر علينا الخوض فيما لا نعلم ، والقول فيه بغير علم .

---

(١) جلال الدين السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٢/ ٢١٦ ط مصر .

أما ما أخرجه العِلمُ من مجهول الغيبيات فسقط عنه الحظرُ، فالإسلام يبارك أن نحقق آية الله فيما سخر لنا : ما في السموات وما في الأرض جميعاً .

* * *

وددتُ لو أن المجال اتسع هنا لبيان شرف العلم في الإسلام ، وكم أتمنى لو أن شباب الأمة قرأوا فيه كتاب ابن عبد البر : (الجامع في بيان العلم وفضله) .

وودت أيضاً لو أن المجال اتسع هنا لنقل ما قال أئمة الأصوليين في إثبات حجج العقل ، والرد على من أبطلوا الاحتجاج به ، فلو قد نقلت من ذلك ما كتب الفقيه الأصولي « ابن حزم » وحده [1] ، لما وسِعَه كتاب ، ولحذِرت أن يشق فهمُه على القراء ممن لم يدرسوا الأصول ويتدربوا على منطقها الدقيق ومنهجها المحكم ، وأسلوبها الصعب ..

* * *

---

(١) في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) راجع في الجزء الاول : الباب الثالث في (إثبات حجج العقول) .

من هنا ، يمُنُّ الإسلام على البشرية ، بحسم الخصومة بين الدين والعقل ، ويحرر الإنسان من أزمة الصدام بين الإيمان والعلم . وتقدم علماء الإسلام ، في طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الإسلامية للعلم وإكبارها العقل . يدرسون الظواهر الكونية بعقلية متحررة ، ويؤيدون النظريات العقلية بتجارب عملية . ودخلوا التاريخ العلمي روّاداً لآفاق لم يصل إليها مَن قبلهم ، فكانوا هم الذين أصّلوا مبادىء المنهج الاستقرائي ، ووضعوا أوليات البحوث التجريبية في الطبيعيات والرياضيات والطب والصيدلة ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة المعملية والرصد الفلكي والملاحي . وبفضلهم اتجهت العلوم الطبيعية والفلكية إلى مجال البحث التجريبي الذي أعوز الفلسفة اليونانية .

ولمن شاء أن يقرأ كتاب المستشرق الإيطالي « نالينو » في (تاريخ الفلك عند العرب) والمستشرق الروسي « كراتشكوفسكي » في (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) . والمستشرق الفرنسي « فيران » في مقدمة (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، لأحمد بن ماجد) .

والعالم الألماني « ساوتر » في (الخوارزمي) و « سارتون » في (عصر البيروني) والمؤرخ « سيديو » في (تاريخ العرب) والعلامة « جوستاف لوبون » في (حضارة العرب) ....

وليقابلْ ما كتبوه عن الإسلام والعلم ، على ما كتب الغربيون عن محنة العلم والفكر بعداء الكنيسة في أوروبا :

« وولف » في (عرض تاريخي للفلسفة) و «ديكارت» في (مقال في المنهج) و « بول هازار » في (الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر) وبرتراند راسل في (العلم والدين) ...

ومما كتب « جوستاف لوبون » :

« والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشاف العلم ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح . — ١٥٩

«والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب المسلمون على البحث، فإذا كانت هنالك أمم قد شاركت العرب في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقتهم على ما يحتمل . فالعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة، صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد ومدرسة فيها ، فإذا كانت المدينة كبيرة ، أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التي روى بنيامين التُطيلي — ت ١١٧٣م — أنه شاهدها في الإسكندرية . وهذا غدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة ... على جامعات فيها مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل ما يساعد على البحث العلمي ، فكان للعرب في اسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة، ستمائة ألف كتاب، لها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس .. وقد قيل بصدد ذلك ، إن شارل الحكيم لم يستطع ، بعد أربعمائة سنة من عهد «الحكَم الثاني» أن يجمع في مكتبة فرنسة الملكية أكثر من تسعمائة مجلد ، ثلثها يكاد يكون خاصاً بعلم اللاهوت .

« ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث، فقيمتها في معرفة الاستفادة منها ، وسيبدو من الاكتشافات التي نذكرها — في الفصول التالية — مقدارُ ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس . وأقتصر الآن على ذكر المبادىء العامة التي وجهت أبحاثهم : فبعد أن نقلوا كتب اليونان ، لم يلبثوا أن أدركوا أن التجربة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب . وعلى ما يبدو

من بداهة هذه الحقيقة ، جدَّ علماء القرون الوسطى في أوروبا ألفَ سنة قبل أن يعلموها ! .

« يُعزى إلى « بيكون » على العموم ، أنه أول من أقام التجربة والترصد ، اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ . لكنْ يجب أن يُعترَف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب المسلمين وحدهم ، وقد أبدى هذا الرأي ، جميعُ العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولا سيما « همبولد » فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والرصْد هو أرفع درجةً في العلوم ، قال : إن العرب ـ المسلمين ـ ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي يجهلها القدماء تقريباً . « سيديو » : إن أهمَّ ما اتصفت به بغداد في البداءة ، هو روحها الصحيحة التي كانت سائدة : فكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في استنباط العلل من المعلولات ، وعدمُ التسليم بما لا يثبت بغير التجربة ، مبادىء قال بهـــا أساتذة العرب . والعرب في القرن التاسع من الميلاد ، كانوا حائزين لهذا المنهج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل ، للوصول إلى أجل الاكتشافات .

منهاج العرب قائم على التجربة والترصد . وأما دَرْسُ الكتب والاقتصار على تكرار رأي المعلم ، فقد سارت عليه أوروبة في القرون الوسطى . والفرق بين المنهجين أساسي ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق . اختبر العربُ الأمورَ وجربوها ، فكانوا أول مَن أدرك أهمية هذا المنهج في العالم . فظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً . قال « دولا نبير » في كتاب (تاريخ علم الفلك) : إذا استطعت أن تعد بين الأغريق راصدين أو ثلاثة ، رأيت بين العرب عدداً كبيراً من الرُّصَّاد . وأما في الكيمياء ، فلا تجد مجرباً يونانياً ، مع أن المجربين من العرب فيها ، يُعدون بالمئات . واعتماد العرب على التجربة منح مؤلفاتهم دقة وإبداعاً لا يُنتظر مثلهما من رجل تعود على درس الحوادث ـ نظرياً ـ في الكتب ...

« ونشأ عن منهاج العرب التجريبي وصولُهم إلى اكتشافات مهمة . فسترى من مباحثنا في أعمال العرب العلمية، أنهم في الحقيقة أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة ، من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الإغريق في زمن أطول كثيراً . وكان تراث الإغريق العلمي قد انتقل إلى البيزنطيين فلم يستفيدوا منه ، فلما آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه ، فتلقاه ورثتهم مخلوقاً خلقاً آخر . ولم يقتصروا على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، بل نشروها كذلك بما أقاموه من الجامعات وما ألّفوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أوروبة من هذه الناحية . وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير ، أن علمـــاء الإسلام . العرب ، كانوا وحدهم أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون ، وأننا لم نطلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضلهم ، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفاتهم ، إلا في الأزمنة الحاضرة » [1] .

* * *

ومع ملاحظة أن « جوستاف لوبون » يؤرخ في كل كتابه لحضارة الإسلام، والعلماء المسلمين ، تكون لشهادته قيمة عند مَن يرتابون في تحرر العقلية الإسلامية من عقدة العداء بين الدين والعلم التي أرهقت علماء أوروبة بعد فجر النهضة ، وطاردتْهم بلعنة الكنيسة . وغير مجهولٍ ما أحدث الفلكي البولندي « كوبرنيكس » بكتابه (دَوَران الأجرام السماويةً) — في القرن السابع عشر للميلاد — من هزة عنيفة جعلت الأرض تَميد تحت الكنيسة التي أعلنت الحرب على هذه الهرطقة الخطرة ، وتصدى سدَنتها ، من رجال اللاهوت ، لحماية رعاياهم من فتنة العِلم وزيغ شياطينه ! ولم ينجُ « جاليلو » من الموت حرقاً ، إلا بإعلان التوبة عن خطيئته ، وإقراره أمام المحكمة بما أمره به قُضاته ، من أن كل ما قاله عن دوران الأرض حول الشمس ، كان وهماً زائفاً وضلالاً بعيداً !

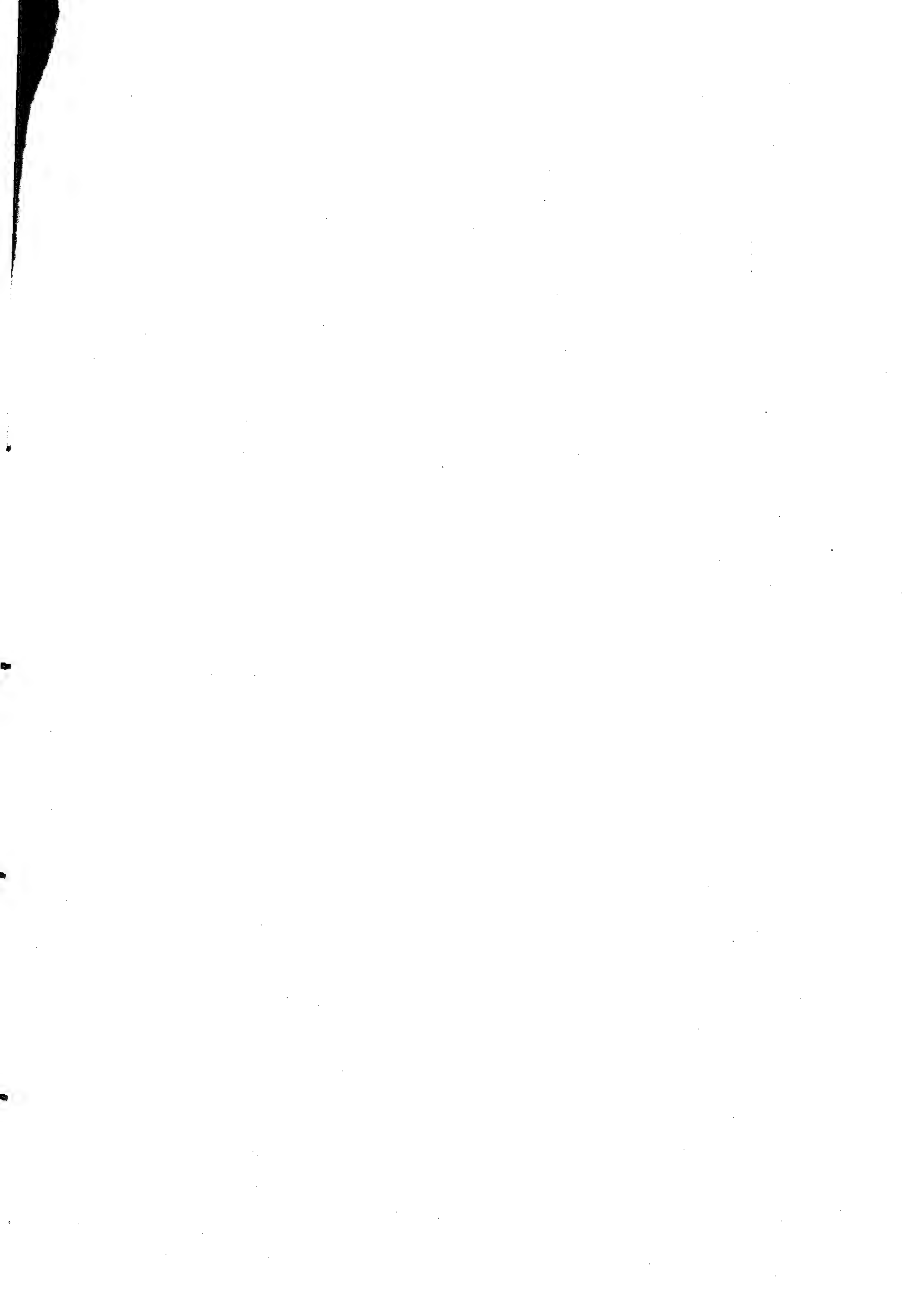
---

(١) حضارة العرب : ص ٥٢٣ وما بعدها ، من الترجمة العربية لعادل زعيتر : الطبعة الثانية / معارف .

وأرانا اليوم ، نسمع عن جدل مثارٍ حول الدين والعلم . وذلك في حساب التاريخ الفكري رجعة بالبشرية إلى ما وراء أربعة عشر قرناً مضت .

وعن جهل بالدين والعلم كليهما ، يراد بإنسان العصر أن يُمتَحن بأزمة اختيار بين عقله وإيمانه . وقد أعفاه الدين ، في ختام رسالاته ، من معاناة مثل هذه الأزمة ، حيثُ لا يُتصَور أن يستغني عنهما : والفراغ من العقيدة ضياع ، والكفر بالعِلم انتحار ...





بين المحافظة والتجديد

(وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قل أوَ لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون)

قرآن كريم

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها »

محمد ، رسول الله



موقف الإسلام من العلم ، يكفي وجده لتصحيح الفكرة الشائعة عن جمود الشخصية الإسلامية ومعاندتها للتجديد والتطور .

عِلْمُ الإنسان ، في العقيدة الإسلامية ، عِلْمٌ كسبي . ينمو مع الزمن ويزيد بزيادة التحصيل وتقدم المعرفة .

ولا تعترف عقيدة الإسلام لأي بشر ، ولو كان من الصفوة الرسل ، بأنه قد « أحاط بكل شيء علماً » فذلك لله وحده .

ونحن نتلو من كتاب ديننا ، خطاباً لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :
(فتعالى اللهُ الملكُ الحق، ولا تعجَلْ بالقرآنِ من قَبلِ أن يُقضى إليكَ وحيُه ، وقل ربِّ زِدْني عِلْماً) .

طه : ١١٤

« ويسألونك عن الروح قل الروحُ من أمرِ ربِّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

الإسراء : ٨٥

وما من علمٍ بشرى ، يمكن أن يقال فيه إنه نضج واكتمل ، وأغلِق بابْ البحث فيه فما عاد ينتظر جديداً . وإنما هي مراحل على الطريق ، وما تحسبه كل مرحلة خط النهاية وغاية المسعى ، ليس في حساب الحياة والعلم إلا خطوة على الطريق ، تبدأ من حيث انتهت سابقتُها، منتفعةً بكل عطائها من التجارب والأخطاء .

وليس من طبيعة الأشياء ولا من سنة الحياة ، أن يجمُد الكائن الحي لا ينمو ولا يتحرك ، إلا أن يكون مريضاً مشلولاً أو عاجزاً مغلولا ...

التغير قانون الحياة ، والأصوليون مجمعون على أن العالم متغير ، لأنه مخلوق ، وكل مخلوق عرضة لطوارىء الحدثان .

لا ينفى ذلك ثبات السنن الكونية، بل يكون التغيير سُنَّةً ثابتة في كل ما هو مخلوق حادث .

* * *

والإنسان يحمل تبعتَه في تغيير الأوضاع الفاسدة :

(إن الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفُسِهم)

وهو مكلف كذلك بأن يتابع النظر في الكون والحياة، بحكم اختصاصه دون سائر الكائنات بالعلم الكسبي . مكلف بالبحث العلمي الدائب المتصل ، تحقيقاً لآية الخالق فيما سخّر للإنسان (ما في السموات والأرض جميعاً) .

إنما يحدث الخطأ ، حين يتصور بعضنا أن التجديد يعني هدم القديم كله، وأن التطور يمكن أن يبدأ من فراغ ، مع الجهل بتجارب الماضي ، فيخبط الإنسان في متاهة عمياء ليس فيها أثر من معالم الخطوات السابقة على الدرب .

وهذا أيضاً ضد طبيعة الأشياء وسنة النمو الحيوي ، إذ ليس الحاضر إلا ابناً شرعياً للماضي ، بقدر ما هو أبٌ شرعي للمستقبل . وتصوُّرُ بترِ اليوم من الأمس ، كتصور أن يولَد طفلٌ لغير أبوين ، أو أن ينقطع سير الزمن ما بين ليل ونهار ، ليولَد يوم جديد لا أمس له ، ويبزغ فجرٌ مقطوعُ الصلة بما قبله .

وما من مرحلة في طريق الحياة تستغني عن خبرة مراحلَ سبقت . وتتكامل جهود الإنسانية في مسعاها الكادح على مراقي تطورها : كل درجة تفسح لما بعدها

آفاقَ الطموح وتوسِّع أبعادَ مجال الرؤية ، وتزوِّدها برصيد خبرتها ، الصواب منها والخطأ .

* * *

وأقربُ ما يتبادر إلى الفهم العام للتجديد ، أنه ينسخ قديماً ويتحول عنه . وذلك ما لا يجوز إلا عن إدراك تام لوجه الفساد فيما نرفض ، فنتقي بذلك خطأ التورط في رفض ما ليس فاسداً ، ونؤمن حركة التحول ، بتجنب أخطاء القديم .

على أنه ليس حتماً في المنهج العلمي ، أن يكون الجديد نسخاً للقديم. مجال التجديد يتسع لكل إضافة ، تكون بالنسخ أو التعديل ، وتكون كذلك بتصحيح الفهم لقديمٍ لابَسَتْه شوائبُ دخيلة عليه ، وتحريرِ مبادىءَ أسيء فهمُها أو أسيء تطبيقُها .

بل إن المنهج يعد من التجديد أيضاً ، تناولَ نظرية متداوَلة ومبادىء قديمة ، بمزيد بحث وتحقيق ، يؤيدها بأدلة لم تكن معروفة ، ويدعمها بتجربة أو استقراء كانت في حاجة إليه .

* * *

وقد تطورت العقائد والعبادات مع تطور البشرية ، فتتابعت الرسالات الدينية والأصلُ واحد ، كل رسالة منها تقدم إلى البشرية ما تحتاج إليه في مرحلة من مراحل نموها المطرد ، وتخاطبها بأسلوب غير الذي كان يلائمها في عصور خلَت . ثم لما شارفت الإنسانية رشدَها ، خُتِمَت رسالاتُ الدينِ الواحد ، بالإسلام الذي جاء مصدقاً لها ، ومستصفياً منها ما رأى للبشرية المتدينة أن تصير إليه ، ومنقياً جوهر العقيدة من الشوائب التي عـلِقَتْ به على المدى الطويل .

والحياة تتابع سيرها ، والدنيا تتسع أبعادها وآفاقها ، وليست بحيث تنتظر رسالة جديدة بعد الرسالة الخاتمة للدين ، الصالحة لهداية الحياة على امتداد الزمان والمكان .

مقتضى عالـَمية الإسلام وخلوده ، أن يفي بجديد حاجات الحياة المتطورة والظروف المتغيرة ، مما ينفي عنه أي ظلٍّ من شبهة الجمود ومعاندة التجديد والتطور .

والذين لهم حظ من فقه الإسلام ، يعرفون أن القرآن قدَّر واقع الحياة في عصر نزوله ، وأفسح معه آفاق الطموح إلى القِيَم الخالدة والمثلُ العليا التي تظل الإنسانية كادحة إليها مستشرفة لها ، ما بقيت الحياة .

ويعرفون معه ، أن القرآن — في مجمله — وضع الأصول العامة والمبادىء الكلية ، وترك المفردات التفصيلية والجزئيات الفرعية ، تستجيب لدواعي التطور وتفي بجديد حاجات الأمة في مختلف الظروف والأحوال .

وفيما فَصَّلَ من أحكام شرعية ، أقر حكم الضرورات فأباح بها المحظورات :

(وقد فَصَّلَ لكم ما حَرَّمَ عليكم إلا ما اضطُرِرتُم إليه ، وإن كثيراً لَيُضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربَّكَ هو أعلم بالمعتدين) .

الأنعام : ١١٩

(فمن اضطُرَ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه ، إن اللهَ غفور رحيم) .

البقرة : ١٧٣

واعتد الفقهاء بالمصلحة الواقعة « حيثما وُجِدتْ فثَم حُكمُ الله » وقدروا اختلاف الأعراف باختلاف البيئات والشعوب فقالوا :

« والعرفُ في الشرع له اعتبارُ . »

وإقرار الاجتهاد في الإسلام ، كان استجابة عملية لسنة التطوروأحكام الواقع ، في مواجهة مقتضيات طوارىء الظروف وجديد الأحوال والأوضاعُ . فدخل في أصول الشريعة : القياسُ والإجماعُ ، والاستحسانُ والاستصحابُ

والمصلحةُ والذرائع، تدبيراً لأوضاعٍ طارئة لم يرد فيها نصٌّ من أصل الكتاب والسنة .

ومن عصر المبعث ، بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته منهج شريعتهم، فقال في خطبته بحجة الوداع :

« وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : أمراً بيِّناً ، كتابَ الله وسنة نبيِّه » .

وقدر حاجة الأمة ، ما بين قرنٍ وآخر ، إلى أئمة يجددون لها أمر دينِها مع دفع الحياة وحركة الزمن ، ويهدونها على الطريق حين تتشابه السبُل وتتشعب الدروب ، ويحررون فهمَها للدين من دخيلِ الشوائب وفاسد البدع . قال عليه الصلاة والسلام :

« إن اللهَ يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، مَن يجدد لها أمرَ دينها»[1]

وقد عُنِي السلفُ بتتبع هؤلاءَ الأئمة المجددين للأمة أمر دينها ، وصنّفوا فيهم كتباً ، منها ما لم يصلْ إلينا ككتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني :

(الفوائد الجمّة فيمن يجدد الدين لهذه الأمة)[2] .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، والحسن بن سفيان في مسنده ، والطبراني في معجمه الأوسط ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في المدخل ...

وتضيف رواية : « إن الله يبعث لهذه الأمة من آل بيتي ... »

وقد كان من المجددين الأئمة ، على رءوس المئات ، من ليسوا من آل البيت النبوي . فإن صحت رواية الحديث بهذه الإضافة ، فأقرب ما أفهمها به الحديث في (صحيح مسلم) عن عمرو بن العاص ، قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاراً من غير سر يقول : ألا إن آل أبي ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين » .

(٢) ذكره حاجى خليفة في (كشف الظنون) وقال فيه ما نصه : « ذكره في فهرست مؤلفاته ، قال السيوطي : لم أقف عليه مع شدة طلبي له ، لأنه – أي ابن حجر – وعد في (مناقب الشافعي) أن يبين من يصلح أن يتصف بذلك ، في رأس المائة الثالثة وما بعدها » .

جـ ٢ ص ١٢٩٦ ط استنبول .

ومنها ما وصل إلينا ، ككتاب جلال الدين السيوطي :

(التنبئة ، فيمن بعثه الله على رأس كل مائة) .

وكتاب المراغي الجرجاوي : (بغية المقتدين ومنحة المجددين) ..

وكلاهما من مخطوطات خزانة دار الكتب المصرية .

وعليهما أقام أستاذنا « أمين الخولي » كتابه (المجددون في الإسلام) وقد نشر الجزء الأول منه في القاهرة سنة ١٩٦٥ .

وأستغنى هنا بما قدم أستاذنا في كتابه . عن أسس التجديد قديماً وحديثاً ، وأسس التطور في الإسلام ، وعطاء مجدديه لحياة الأمة ، الدينية والعلمية والخلقية ..

* * *

وحيوية التجديد في الإسلام، لم تكن استجابة لِسَيْر الزمن فحسب ، بل كانت كذلك ، استجابة لظروف المكان . واختلاف أئمة الفقه الإسلامي ، أصحاب المذاهب — وهم من عصر واحد : القرن الثاني للهجرة — هو من هذه الاستجابة التي بلغ من قوتها ما يعرفه الدارسون من تطور المذهب الفقهي للإمام الشافعي ، في رسالته المشهورة التي عُدَّ بها واضع أصول الفقه : كتبها لأول مرة في بغداد ، ثم لما انتقل إلى مصر وعاش في بيئة غير بيئتي الحجاز والعراق ، أعاد النظر في الرسالة وعكف على كتابتها مرة أخرى ، وصار له بذلك قديمٌ في الفقه وجديد ، وقد اعتد بجديده في مصر فجعله كالناسخ لما كتبه في بغداد، فقال ، فيما نقل الرازي في (مناقب الشافعي) :

« لا أجعل في حِلٍّ مَن روَى عني كتابي البغدادي » .

والإمام الشافعي ، مجدد المائة الثانية . وقد بلغ من إيمانه بالتجديد أن نهى أصحابه عن تقليده أو تقليد غيره . وأخَذَهم بمبدئه المشهور في الفقه :

« لا يجوز للمجتهد أن يقلد مجتهداً غيره » .

وأصحاب الإمام أبي حنيفة ، قد ينقلون رأياً له ثم يذكرون أنه رجع عنه . ويقولون فيما اختلف فيه أصحابه عن الإمام : « إن الاختلاف هنا اختلافُ عصرٍ فقط » وهو تقدير لتأثر الفقه باختلاف الزمن وتغير الأحداث والأحوال .

والمكتبة الفقهية لم تُغلق على ما قدّمه أئمة المذاهب ، بل أضافت إليها الأجيال من أصحابهم ، عطاءها المتتابع : خدمة وشرحاً وتحقيقاً ، ودراسة ومقارنة ، ونقداً واستدراكاً ... فما يكاد دارس منا متخصص ، يستوعب مصنفاتهم في المذهب الواحد ، فضلاً عن استيعابها في المذاهب الأربعة المشهورة .

* * *

وإذا كان التجديد قد استجاب للتطور في المجال الديني ، فكيف بما لم يتعلق الشرع بالحكم عليه من شئون الدنيا العملية ومُحدَثات العلوم ؟

في عصر المبعث ، ألحف بعض المسلمين في السؤال عن أمور لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد عرَض لها ، فغضب وقال : « ذروني ما تركتُكم » وتلا الآية المحكمة :

(يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسُؤكم)

ويختلط على الناس أحياناً في السنة ، ما كان من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله متعلقاً بالشرع ، وما كان من الجِبلة والطبع أو من معايش الدنيا . ويتطوع ناس فينكرون مثلاً ركوبَ الحجاج الطائرة ، ولا نعلم أن أحد هؤلاء المنكرين يقتني بغلة أو ناقة ، اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أن أحدَهم تحرج من تناوُلِ طعام أو شراب ، لم يكن لعصرِ المبعث عهدٌ به ! أو تحرج من التداوي بأدويةٍ لم يعرفها سلفُنا الصالح !

في (باب وجوب امتثال ما قاله — صلى الله عليه وسلم — شرعاً ، دون ما ذكره من معايش الدنيا) من صحيح مسلم ، الحديثُ عن موسى بن طلحة

عن أبيه ، قال : مررتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقومٍ على رءوس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قيل : يلقحونه .. فقال : « ما أظن يغني ذلك شيئاً » . فأخبِروا بذلك فتركوه ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننتُ ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكنْ إذا حدثتكم عن اللهِ شيئاً فخذوا به »

وفي رواية رافع بن خديج ، أنه قال :

« إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتُكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر »

قال العلماء : أي في أمور الدنيا ومعايشها ، لا على سبيل التشريع . أما ما قاله صلى الله عليه وسلم باجتهاده ورآه شرعاً ، فيجب العمل به شرعاً . وليس إبار النخل من هذا النوع .

عن عائشة أم المؤمنين ، وعن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في إبار النخل : « أنتم أعلمُ بأمر دنياكم »

وكان من أخوف ما يخافه المصطفى صلى الله عليه وسلم على أمته، لجاجةُ بعضِنا في السؤال عما لم ينص الشرع على تحريمه ، فيجر ذلك إلى تحريمه على الناس . قال صلى الله عليه وسلم :

« إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً ، مَن سأل عن أمرٍ لم يُحرم عليهم ، فحُرِّم على الناس من أجل مسألتِه »

رواه سفيان بن عُيَينة عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه، وقال سفيان :

« أحفظه ، أي الحديث ، كما أحفظ : بسم الله الرحمن الرحيم »

وهذا يفسر لنا موقف الأئمة من سلفنا الصالح ، في تحرجهم من الفتيا

بالحرام والحلال ، فيما لم يأتِ فيه نصٌّ من الكتاب والسنة . نقل « القاضي عياض » في كتابه (ترتيب المدارك) قول الإمام مالك :

« ما كان شيء أشد عليّ من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع في حكم الله . ولقد أدركتُ أهلَ العلم ببلدنا — دار الهجرة — وإن أحدهم إذا سئل عن المسألة أحلال هي أم حرام ، كأن الموتَ أشرف عليه »

وقال رضي الله عنه ، فيما نقل « ابن عبد البر » في (جامع بيان العلم وفضله) :

« لم يكن من أمر الناس ولا مَن مضى من سلَفِنا ، ولا أدركت أحداً ممن أقتدي به ، يقول في شيء : هذا حلال ، وهذا حرام . ما كانوا يجترئون على ذلك . وإنما كانوا يقولون : نكره هذا ؛ ونرى هذا حسناً ؛ فينبغي هذا ؛ ولا نرى هذا . ولا يقولون : حلال ؛ ولا : حرام . أما سمعت قول الله تعالى : (قل أرأيتم ما أنزل اللهُ لكم من رزقٍ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ، قل آللهُ أذِن لكم أم على الله تفترون) ؟ الحلال ما أحله اللهُ ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسولُه »

وأرانا في هذا الزمان ممتَحنون بمن يتصدون للفتيا في أمور الدين والدنيا بغير علم ، ومَن يشتون على الناس بما يحللون ويحرمون ، وفيهم من لم يصح له أن يقرأ آية من القرآن أو حديثا من صحيح السنة .

* * *

والتجديد في محدثات العلوم والحضارة ، أرحبُ مجالاً بلا ريب ، والتطور فيها أقوى دفعاً وأشد إلزاماً ، مع اطراد التقدم العلمي . وكل يوم يكشف عن مجهول من خواص الطبيعة وأسرار الوجود وآفاق الحياة ، ويستحدث جديداً من عطاء الحضارة .

ولم يتردد علماء الدولة الإسلامية ، في عصرها الأول ، في استطلاع معالم الطريق التي ارتادتها دُولٌ قبلهم ، ليتزودوا بها لما ارتادوا من مراحل جديدة . واستحدثت الأجيال منهم مصنفاتٍ في علوم لم يسمع بها جيلُ الصحابة والتابعين ، ومناهج لم يسبقهم إليها سابق ، ودخلوا التاريخ العلمي والحضاري رُواداً لآفاق لا عهد للانسانية بها في قديم الفكر والحضارة .

وإذا كانت الأمة الإسلامية قد جدَّت في نقل التراث العقلي للأمم قبلها ، وعربته وانتفعت به ، فإنها عزفت في الوقت نفسه ، عن التراث اللغوي والأدبي لغير العرب ، كراهةَ أن تنقل مزاجاً أجنبياً أو تستعير وجداناً غريباً . فمضت حركة الترجمة والتعريب والنقل ، تغذي وجود الأمة بروافد سخية ، دون أن تطمس ملامح شخصيتها أو تجور على أصالتها ، وتهيأ لها بذلك أن تبدع حضارتها الرائدة ، عربيةَ اللسان والقلم ، إسلاميةَ الروح والفكر والجوهر .

***

ولا تعارض على الإطلاق بين التطور والمحافظة ، بل هما على التحقيق متكاملان : تمضي الأمة مع حركة الزمن بحيوية متجددة واستجابة مَرِنة وعقلية متفتحة ، دون أن تفقد ذاتها أو يخونها وعيُها فيما تأخذ من غيرها وما

ترفض : لا تتحرج من نقل كل جديد في العلم ، واستعارة ما يعوزها من ضرورات الحياة المادية ، دون العقيدة واللسان والقيَم والمثُل والأخلاق وأصيل التقاليد ، وكل ما هو من عناصر ذاتها الخاصة وشخصيتها المتميزة .

وإذا كان الوقوف الجامد عند القديم وحده ، معطلاً لسنة التطور وشذوذاً عن قانون الحياة ، فإن إهدار ميراث الأمة في الأجيال من أبنائها ، مسخٌ لمفهوم التطور بما هو تدرج الكائن الحي في الصعود إلى أفق كماله ، وسعيه الدائب نحو تحقيق وجوده الأفضل .

التعارض يأتي من الخلط بين المحافظة والرجعية ، وليستا سواء :

المحافظة سمةُ أصالة ، ومناط امتدادِ الحياة واتصال نموها ما بين ماض وحاضر ،

والرجعية غفاة من سنة الوجود ، وغيبوبة ذاهلة عن حركة سير الزمن ، وصَمَمٌ عن نظام الكون ودورة الفلك : الحياة لا يمكن أن ترتد إلى الخلف وتمشي القهقرى ، ويعجز أهل الأرض مجتمعين عن أن يحولوا دورة الفلك فيقهروا الزمن على أن يسير من الحاضر إلى الماضي ، أو بتعبير شاعري « أبي العلاء » من نحو ألف سنة :

أمسِ الذي مرَّ ، على قُربِه يعجز أهلُ الأرض عن ردِّه

ثم لا يمنع هذا ، أن يكون في الناس ، مسلمين وغير مسلمين ، حمقى يديرون رءوسهم إلى وراء ، في محاولة يائسة للخروج من الحاضر إلى الماضي ، وتصوُّر عقيم لاحتمال دوران الزمن إلى الخلف ، عوداً على بدء ، إلى ما كان عليه الأسلاف في عصور غبرت ، وإن كانوا على ضلال .

وليس بمثل هؤلاء ، نحكم على الشخصية الإسلامية بالرجعية ، وقد نعلم أن القرآن يعدُّها وثنية عقلية ملعونة ، تأخذ الناس بعبادة الأسلاف ، وتتشبث بميراث الآباء الضالين ، فترفض الاستجابة لجديدٍ من دعاء الحق .

على طول التاريخ الديني للبشرية ، كانت هذه الوثنية الرجعية تشد الأجيال إلى ما وجدتْ عليه الآباء من قديم . وكل رسالة دينية كانت في زمنها جديدة ، تبشر بنورٍ ينسخ ليلَ ضلال ، وتقود البشرية من جديد على طريق الهدى ، فكانت الرجعية تتصدى لحربها بما رسخ في القوم من عبادة الأسلاف وإكبار حكمة الآباء ، فتُلقي على بصائر خلَفهم غشاوة تحجب عنهم النور الهادي .

ومن قديم الزمان ، من عصر ما بعد الطوفان ، صكّت سمعَ الدنيا كلمةُ عادٍ لنبيهم « هود » إذ دعاهم إلى عبادة الله وحده ، ما لهم من إله غيره :

(قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي من سفاهة ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أوَ عجبتم أنْ جاءكم ذِكرٌ من ربِّكم على رجلٍ منكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خُلَفاءَ في الأرض من بعدِ قوم نوح وزادكم في الخلقِ بسطةً فاذكروا آلاءَ اللهِ لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبدَ اللهَ وحدَه ونَذَرَ ما كان يعبُد آباؤنا فأتِنا بما تَعدُنا إن كنت من الصادقين)

الأعراف : ٦٦ — ٧٠

ثم ظلت الرجعية تكرر كلمتها من زمنٍ إلى زمن ، فقالها ثمود لنبيهمُ « صالح » إذ دعاهم إلى عبادة الله وحده :

(قالوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مرجُوًّا قبلَ هذا أتَنهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا وإننا لَفي شكٍّ مما تدعونا إليه مريب)

هود : ٦٢

وسمعها ابراهيم (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجَدْنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبين * قالوا أجئتَنا بالحقِّ أم أنت من اللاعبين)؟

الأنبياء : ٥٢ — ٥٥

وإلى مَدْيَنَ أرسل « شعيب » فردُّوه ساخرين مستهزئين :

(قالوا يا شُعَيْبُ أصلاتُك تأمرُك أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا أو أن نفعلَ في أموالِنا ما نشاءُ ، إنك لأنت الحليمُ الرشيد)

هود : ٨٧

وسمعها « موسى » حين جاء بآياتِ ربِّه بيِّنات :

(قالوا ما هذا إلا سحرٌ مفتَرى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * وقال موسى ربي أعلمُ بمن جاء بالهُدى من عنده ومَن تكون له عاقبةُ الدار إنه لا يفلح الظالمون) .

القصص : ٢٦ — ٢٧

(وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بينات قالوا ما هذا إلا رجلٌ يريدُ أن يصدَّكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفكٌ مُفتَرى وقال الذين كفروا للحقِّ لمّا جاءهم إنْ هذا إلا سِحْرٌ مُبِين)

سبأ : ٤٣

وقالتْها الوثنية القرشية لخاتم النبيين :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللهُ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أوَ لو كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذاب السعير) ؟

لقمان : ٢١

(فلا تكُ في مِرْيةٍ مما يعبدُ هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبدُ آباؤهم من قبل)

هود : ١٠٩

وتأخذ هذه الرجعية حُكمَها العام المطلق ، في قوله تعالى لخاتم المرسلين :

(وكذلك ما أرسَلْنا من قبلِكَ في قريةٍ من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أُمة وإنا على آثارهم مقتدون * قل أوَ لو جئتُكم بأهدَى مما

وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أُرسِلتم به كافرون)

الزخرف : ٢٣ — ٢٤

وتقوى دلالة العموم في قضية هذه الرجعية المتابعة للأسلاف الضالين، بالتحذير القرآني ، في آيات الأعراف ، لعامة بني آدم من التورط في مثل أخطاء الآباء :

(يا بني آدمَ لا يفتننّكم الشيطانُ كما أخرج أبويكم مِن الجنة ..)
إلى قوله تعالى :

(وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرَنا بها، قل إن اللهَ لا يأمرُ بالفحشاءِ ، أتقولون على الله ما لا تعلمون) ؟

الأعراف : ٢٧ — ٢٨

* * *

وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، مصدق لمن سبقه منهم ، وقد دعا إلى مثل ما دعوا إليه جميعاً ، مما هو جوهر الدين كله .

لكن الدين في ختام رسالاته، يرفض للأبناء متابعة الآباء على خطأ وضلال، ليحرر الإنسانَ من إصر الرجعية الملعونة ، لافتاً إلى خطر الميراث والقُدوة ، حين يضل سلَف فتضل بهم الأجيال من خلفهم .

وبمثل هذا البيان ، يتضح الفرق بين المحافظة على قديم أصيل هو حق وخير ، والرجعية التي تعطل العقل وتعمي البصيرة ، فتتشبث بالمضي على آثار الآباء ولو كانوا على سفه وضلال ، وتصدُّها عبادة الأسلاف عن جديد من الحق والهدى .

* * *

الذاتية الاسلامية
بين الفردية والجماعية

(أنه مَنْ قَتَلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا)

قرآن كريم

« ما من داعٍ يدعو إلى هُدىً إلا كان له مثلُ أجرِ من اتّبعه ، لا ينقُص ذلك من أجورهم شيئاً. وما من داعٍ يدعو إلى ضلالة إذ كان عليه مثلُ أوزارهم ، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا »

محمد ، رسول الله



وآنَ لي، بعد الذي قدمتُ من جوهر الشخصية الإسلامية وأصيل ملامحها، أن أنظر فيما يقال عن ذاتيتها بين الفردية والجماعية .

ولا مجال لإنكار اهتمام الإسلام بالفرد ، وعنايته البالغة بتهذيب ضميره وخلقه،وتوجيه سلوكه . وهي عناية قد يسيء المُحْدَثون فهمها فيما يسمعون من اتجاه المذاهب العصرية إلى المجتمع ، على تفاوتٍ بينها في موقفها من الفرد ، بين إهدار شخصيته أو الاعتراف بها بقدر محدود .

وقد يعلمون ما كشفت عنه التجربة من خطأ الغض من شخصية الفرد والتهوين منها ، والمحاولات المبذولة لتدارك الخطأ وتفادي عواقبه ، بما يعرف بحوافز الطموح .

الذي أوَدُّ أن أوضحه هنا ، هو أن الإسلام ألغى هذه الحواجز غير الطبيعية ، بين الفرد والجماعة ، فهما فيه لا ينفصلان . وهو في عنايته بالإنسان فرداً ، إنما ينظر فيه إلى اجتماعيته التي لا يمكن تصور إنسانيته بمعزلٍ عنها ، كما لا يُتصور كيان اجتماعي بغير أفراد .

وفي الحق إن الذاتية الجماعية أصيلة في العرب ، عُرِفت في نطاق القبيلة يحقق فيها الفردُ ذاته غيرَ منفصلٍ عنها . وهذا هو ما أعطى شاعرَ القبيلة مكانته فيها قائدا سيداً ، وإن جهِلَ هذا الوضعَ عامةُ الدارسين للشعر الجاهلي ، فلم يلتفتوا إلى شاعر القبيلة ممثلاً أصيلاً للحياة العربية في الجاهلية ، بل أقاموا الدراسةَ على حضرٍ وبدو . ومنهم من غضَّ من شأن شاعر القبيلة فلم ير فيه أكثرَ من مجرد بوقٍ لقومه .

وشهِدَ تراث شعراء القبائل ، أن الشاعر إذ كان يتكلم بلسان الجماعة ويفاخر بها ويدافع عن وجودها ، لم يُلغ ذاتيته الخاصة . بل إنه الذي يقود القبيلة إلى ما يستشرف لها من وجود حر ، وقد يشق عليها برفض أوضاع غير كريمة رضيَتْ بها ، ويلهب وجدانها بحمم من كلماته المغاضبة، لترفض ما لا ينبغي لها أن تقبله .

من أجل هذا عَدَلتُ في دراستي لتراث الشعر الجاهلي عن التقسيم المألوف بين بدو وحضر ، وجعلت مدار التقسيم على : شاعر القبيلة، والشاعر الصعلوك، وشاعر البلاط في إمارتي الغساسنة والمناذرة ، في رؤية جديدة كشفت عن أصالة الذاتية الجماعية لشاعرٍ حر يقود قومه ويناضل عن وجودهم الحر ، غير منفعل برغبة في عطاء أو رهبة من غضب وحرمان [1] .

* * *

والإسلام في رفضه لعصبية القبيلة ، اتجه بهذه الذاتية الجماعية الأصيلة إلى نطاقها الرحب في الأمة ، يحقق فيها الفرد ذاته ، ويستقيم أمر الجماعة بصلاح أفرادها ، في اندماج وثيق لا تنفصل فيه فردية عن جماعية .

ولا أتحرج ، بعد طول عكوفي على الدراسات القرآنية ، من القول بأن الإسلام في أصول العقيدة وفروض العبادات وأحكام المعاملات ، وكل التوجيهات لسلوك الإنسان ، إنما ينظر إليه من حيث هو اجتماعي بطبعه ، وليست فردية متوحشة شاذة :

التوحيد ، وهو جوهر العقيدة ، ليس إلا رفضاً للعبودية للبشر في مختلف ضروبها وأشكالها. وهذا تحرير للإنسانية من مهانة الرق والاستعباد، ومن فتنة تقديس الزعماء والأبطال والرؤساء الحكام ، وأغلال الخوف من الجبابرة والطغاة .

---

(١) بتفصيل واستقراء ، في (قيم جديدة للأدب العربي ، القديم والمعاصر) ط معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦٧ ودار المعارف بالقاهرة ١٩٧٠ .

والعبادات ، على ما سبق بيانه في المبحث الأول ، شعائر لا طقوس . وحين لا تؤدى العبادة غايتها من صلاح الفرد والجماعة ، تقوى وخشوعاً وتواضعاً وتراحماً وتكافلاً ، فإنها تؤول إلى طقوس شكلية وحركات آلية فقَدت مغزاها وحكمتها ، وكان منها للمرائين أقنعةُ زيفٍ وتمويه ، يشق بها على الناس أن يميزوا بين تقي وفاجر ، بين مؤمن خاشع ومنافق دجال .

والمعاملات تنظيم للحياة العملية ، وضبط العلاقات بين الأفراد في المجتمع ، بما يكفل العدلَ والإحسان والأمن وتكافؤ الحقوق والواجبات ، وصيانةَ الحرمات الخاصة والعامة ، بأحكام الشرع .

وأحكام القِصاص في القتل والتشويه والجروح ، تأمين لحياة الجماعة : (ولكم في القِصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون)

وحدود الشرع في مثل عقوبة الزنى والإفك والسرقة وشرب الخمر ، حماية للجماعة من شر المجرمين والمنحرفين من أفرادها، وردعٌ عن الفساد في الأرض .

* * *

والأمر كذلك في السلوك : إذا اتجه فيه الإسلام إلى الإنسان فإنما هو الفرد في الجماعة : تآلفاً وترابطاً ووحدة ، وجهاداً في سبيل الحق ، ودعوة إلى الخير وتواصياً بالمعروف وتناهياً عن المنكر ، وتعاوناً على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .

ووحدةُ الجماعة تأخذ في الإسلام حرمة دينية ، من وصفِها القرآني بأنها اعتصام بحبل الله ، يَمُنُّ على الأمة ، بما ألّف بين قلوب أبنائها بالعقيدة الواحدة :

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفرّقوا ، واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبِكم فأصبحتم بنعمتِه إخوانا ، وكنتم على

شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم »

آل عمران: ١٠٣ – ١٠٤

* * *

والإسلام في حرصه على وحدة الأمة ، يشتد في لعنة النفاق وينفي أهله عن الجماعة وقاية لها من دائه الخبيث وسمه المدمر :

(ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون *ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

البقرة : ٨ – ١٦

وقد لقي المسلمون الأولون من كيد المنافقين ما يعرفه دارسو السيرة وتاريخ عصر المبعث : النفاق نجم في المدينة بعد الهجرة ، نفثة من سم اليهود الناشبين في شمال الحجاز . وكانت جيوب النفاق أشد ما واجه الإسلام في صراعه مع الوثنية القرشية والعصابات اليهودية . كمن السم في أول الأمر . وتتابعت بوادره مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه ، منذرة بأشد الخطر ، من حيث يخالط المنافقون المؤمنين ، ثم لا يملك أحد أن ينفيهم عن الإسلام وهم يتعوذون بالتظاهر به وينطقون بشهادته . والحكم على النوايا متروك لله وحده .

ثم جاءت غزوة تبوك ، في السنة التاسعة للهجرة ، فمزّقت أقنعتهم وكشفت المستور من كفرهم ، وآذنت بأن النفاق الذي طالما هدّد الجبهة الإسلامية ، قد صار داءً عياء لا يجدي فيه غير التطهير والبتر .

لقد مشى بعضهم إلى بعض يتواصَون بالقعود زهداً في الجهاد وشكّاً في المصير وإرجافاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وانبث نفر منهم في أحياء دار الهجرة دُعاةَ تثبيطٍ وتخذيل [1] .

ونزلت آياتُ (التوبة) الفاضحة لزيف المنافقين ، تنفيهم عن الإسلام أحياءً وأمواتاً ، وتعزلهم عن مخالطة المسلمين حسماً لشرِّ الفتنة ، وتنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار لهم أو الصلاة على مَن يموت منهم :

(لو خرَجوا فيكم ما زادوكم إلا خبَالاً ، ولأوضَعوا خِلالَكم يَبغونكم الفتنةَ وفيكم سمَّاعون لهم ، والله عليمٌ بالظالمين * لقد ابتَغَوا الفتنةَ من قبلُ وقلَّبُوا لك الأمورَ حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ اللهِ وهم كارهون)

٤٧ — ٤٨

(استغفرْ لهم أو لا تستغفرْ لهم إن تستغفرْ لهم سبعين مرةً فلن يغفرَ اللهُ لهم ، ذلك بأنهم كفروا باللهِ ورسولِه ، واللهُ لا يَهدِي القوم الفاسقين)— ٨٠

(فإن رجَعَك اللهُ إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروجِ فقُلْ لن تخرجوا معي أبداً ولن تُقاتلوا معي عدوّاً إنكم رضيتم بالقعودِ أولَ مرةٍ فاقعدوا مع الخالفين * ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقُمْ على قبرهِ إنهم كفروا باللهِ ورسولِه وماتوا وهم فاسقون »

٨٣ — ٨٤

* * *

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ . وتاريخ الطبري : حوادث السنة التاسعة للهجرة .

والفتنةُ ، في الإسلامْ ، أشـدُّ من القتـل . والنبز واللمز ، والتجسس والغيبة والنميمة ، والسعيُ بين الناس بالدسِّ والوقيعة ، والإرجافُ بشائعات السوء ، والأخذُ بالظنة ... وهي أمراض اجتماعية وبيلة، يصابُ بها الفردُ والأفراد، فيُصيب الجماعةَ منهم شرٌّ مهلِك. وكتاب الإسلام يشتد في النهي عنها وتحذير أمته منها ، حماية لكيان الجماعة من التصدع والتمزق :

(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخرْ قوم من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهن، ولا تلمِزوا أنفسكم ولا تَنَابَزوا بالألقابِ بئس الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ ،ومَن لم يتُبْ فأولئك همُ الظالمون*يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنِّ إن بعضَ الظنِّ إثمٌ ، ولا تجَسّسوا ولا يَغتبْ بعضُكم بعضاً أيُحِبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً فكرهتموه ، واتقوا اللهَ ، إن اللهَ توابٌ رحيم)

الحجرات: ٦، ١١ — ١٣

* * *

وهل ينظر القرآن إلى الإنسان فرداً ، وهو يأمره بالعدل والإحسان والبِر وصلة الرحم وأداء الأمانات إلى أهلها والوفاء بالعهد والصدقِ والتواضع ، وينهاه عن العقوق والجور والبغي والفجور وقطع الأرحام ، وعن المنِّ والرياء والأذى والفساد ؟

مثل هذه الأوامر والنواهي ، لا تتعلق بتعامل الإنسان مع نفسه ، وإنما هو التعامل مع الناس . فليس الإنسان بحيث يبر ويعف ويفي ويصدق ويُصلح ، أو يخون ويفسق ويعق ويظلم ويزوِّر ويعتدي ويطغى ، في نطاق فرديته الخاصة :

(إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهَى عن الفحشاء

والمنكرِ والبغي ، يَعِظُكم لعلكم تذكّرون * وأوفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيْمانَ بعد توكيدِها وقد جعلتم اللهَ عليكم كفيلا ، إن اللهَ يعلمُ ما تفعلون)

النحل : ٩٠ — ٩١

(إن اللهَ يأمرُكم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناسِ أن تحكمُوا بالعدلِ ، إن اللهَ نِعِمَّا يعِظُكم به ، إن الله كان سميعاً بصيرا)

النساء : ٥٨

(ولا تَجعلْ مع اللهِ إلهاً آخرَ فتقعدَ مذموماً مخذولا * وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إمَّا يبلغَنَّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريما * واخفِضْ لهما جناحَ الذلِّ من الرحمةِ وقلْ ربِّ ارحمْهما كما ربّياني صغيراً)

(ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ ومَن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً فلا يُسرِفْ في القتلِ إنه كان منصورا * ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشُدَّه ، وأوفوا بالعهدِ إن العهدَ كان مسئولا)

(ولا تمشِ في الأرضِ مرَحاً إنك لن تَخرِق الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولا)

الإسراء : ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٧

* * *

من هَدْي السُّنةِ في الذاتية الاجتماعية للشخصية الإسلامية ، أقدم هذه الأحاديث النبوية من (الموطأ ، والصحيحين) :

« بُعِثت لأتممَ مكارم الأخلاق »

« الدينُ النصيحة »

« لكلّ دينٍ خُلُقٌ ، وخلُق الإسلام الحياءُ »

« مَثَلُ أمّتي في تراحُمهم وتواصُلِهم كمَثَلِ الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »

« لا يؤمِنْ أحدُكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

« لا تَحقِرنّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق »

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذُله ولا يَحقِرُه . التقوى ها هنا — وأشار صلى الله عليه وسلم إلى صدره — بحسبِ امرىءٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم . كلُّ المسلمِ على المسلم حرام : دمُه ومالُه وعِرضُه »

« المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون من لسانِه ويدِه »

« لا يَحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ ، يلتقيانِ فيُعرض هذا ويُعرِض هذا ، وخيرُهما الذي يبدأ بالسلام »

« من كان يؤمِن باللهِ واليومِ الآخرِ فليقُلْ خيراً أو فليَصمُتْ . من كان يؤمن بالله واليوم الآخرِ فليُكرِمْ جارَه . ومَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ فليُكرمْ ضيفَه »

« إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذَبُ الحديث . ولا تَحَسّسوا ولا تجَسّسوا ولا تَحاسَدوا ولا تباغَضُوا ، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانا »

« لا ترجِعوا بعدي كُفّاراً ، يضرب بعضُكم رقابَ بعض »

« مَن حَمَلَ علينا السلاحَ فليس منا ، ومن غشّنا فليس منا »

« ما ظهرَ الغُلول في قومٍ قط إلا أُلقِيَ في قلوبِهم الرعبُ . ولا فشا الزنى في قوم قط إلا كثُر فيهم الموتُ . ولا نَقص قومٌ المكيالَ والميزانَ إلا قُطِعَ عنهم الرزقُ . ولا حكم قومٌ بغيرِ الحقِّ إلا فشا فيهم الدمُ . ولا خَتَر قوم بالعهدِ إلا سلّط اللهُ عليهم العدوّ »

« أربعٌ مَنْ كانت فيه خَلّةٌ منهن كانت فيه خلةٌ من نفاقٍ حتى يدَعها : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ ، وإذا خاصَم فَجَرَ »

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الشركُ بالله ، وعقوقُ الوالدين ، وقتلُ النفس ، وقولُ الزور »

« اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم اللهُ إلا بالحق ، و أكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يومَ الزحفِ ، وقذفُ المحصَنات الغافلات المؤمنات »

« ثلاثة لا يكلمهم اللهُ يومَ القيامة : المَنّانُ الذي لا يُعطى شيئا إلا مَنّه ، والمُنفِقُ سلعتَه بالحلْفِ الفاجر ، والمسبِلُ إزارَه بطراً وخيلاء »

* * *

وفي (صحيح مسلم) عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إياكم والجلوسَ في الطرقات »

قالوا : يا رسول الله ، ما لنا بُدٌّ من مجالسِنا ، نتحدث فيها .

قال : « إذا أبيتم إلا المجلسَ فأعطوا الطريقَ حقّه »

سألوا : وما حقه ؟

قال : « غضُّ البصر ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »

وماذا عن غير المسلمين ؟

مع المبدأ الإسلامي : « لا إكراه في الدين » يكون في ديار الإسلام من آثروا البقاء على دينهم الأول ، ولم يستجيبوا لدعوة الإسلام . ولهم أن يعيشوا في حماه ، أهلَ ذمة ، لا يُضَارُّون في دينهم ولا في أنفسهم وأموالهم ، ما لم يكيدوا له أو يظاهروا عليه عدواً . ويشاركون في الأعباء العامة بأداء الجزية ، كما يؤتي المسلمون زكاة المال .

أما الذين دخلوا في الإسلام منهم طوعاً ، فهم من الأمة ، لا فضلَ لعربي على أعجمي منهم إلا بالتقوى ..

* * *

ثم إن الأمة الإسلامية لا تعيش مغلقة على نفسها بمعزلٍ عن سائر الأمم والشعوب . وقد وضع كتابُ الإسلام لأمته الأصول والمبادىء العامة للتعامل مع غيرها ، ليكون لهذه المبادىء حرمتُها الدينية ، في حدود ما أمر الله به من العدل والتقوى والتسامح وحسن الجوار .

وقد يكفي أن أشير هنا إلى ما يتعلق بكبريات قضايا السياسة الدولية ، في السلم والحرب والهدنة ، وحسن الجوار أو التعايش السلمي بمصطلح عصرنا :

السلام شعار إسلامي أصيل وعريق ، وليس مُحدَثاً طارئاً كما يدعي بعض المذهبيين في عصرنا :

من أسماء الله تعالى الحسنى . السلام :

(**هو اللهُ الذي لا إله إلا هو الملك القدوسُ السلامُ**)

الحشر : ٢٣

وكلمة رِضاه على عباده المتقين ، سلام :

(والسلامُ على من اتبع الهدى)

طه : ٤٧

(قل الحمدُ للهِ وسلامٌ على عبادِه الذين اصطفى)

النمل : ٥٩

(وسلامٌ على المرسلين * والحمدُ للهِ ربِّ العالمين)

الصافات : ١٨١

وليلة القدر : (سلامٌ هي حتى مطلع الفجر)

القدر

ودعاء الأمة لنبيها ، صلاةٌ عليه وسلام :

(يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)

الأحزاب : ٥٦

وتحية المسلمين فيما بينهم ، سلامٌ عليكم :

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم)

الأنعام : ٥٤

وتحية الزائر لأهلِ بيت ، سلام :

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخُلوا بيوتاً غير بيوتِكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ..)

(فإذا دخلتم بيوتا فسلِّموا على أنفسِكم تحيةً من عندِ اللهِ مباركة طيبة)

النور : ٢٧ — ٦١

وكلمة المؤمنين التي يلقون بها سفاهة الجاهلين ، سلام .

(وعبادُ الرحمن الذين يمشُون على الأرضِ هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)

الفرقان : ٦٣

والله يهدي بالإسلام (من اتبع رِضوانَه سبُلَ السلام)

المائدة : ١٦

وجنة المؤمنين في الآخرة ، دارُ السلام :

(لهم دارُ السلامِ عند ربِّهم وهو وليُّهم بما كانوا يعملون)

الأنعام : ١٢٧

(ادخلوها بسلامٍ آمنين)

الحجر : ٤٦

(دعواهم فيها سبحانَك اللهم وتحيتهم فيها سلام)

يونس : ١٠

(لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما * إلا قيلاً سلاماً سلاما)

الواقعة : ٢٦

* * *

ولا يكون سلامٌ في الدنيا ، من غير سلم .

والسلم دعوةُ الإسلام العامة ، للمؤمنين كافة :

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافةً ولا تتبعوا خطواتِ الشيطانِ إنه لكم عدو مبين * فإن زلَلتم من بعدِ ما جاءتكم البيناتُ فاعلموا أنَّ الله عزيز حكيم)

البقرة : ٢٠٨

* * *

لكن دعوةَ السلم لا تسالم العدوان .

والإسلام يضع الحدود الفاصلة بين الحرب المشروعة جهاداً في سبيل الحق ودفعاً للظلم وغضباً لحرماتٍ لا يجوز أن تستباح .

والحربِ العدوانية طمعاً وبغياً ، وبطراً وطغياناً :

(أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن اللهَ على نصرِهم لَقدير * الذين أُخرِجوا من ديارِهم بغير حقّ إلا أن يقولوا ربُّنا اللهُ ، ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلوات ومساجدُ يُذكرُ فيها اسمُ الله كثيرا ، ولَيَنصرَنَّ اللهُ من يَنصرُه ، إن اللهَ لقويٌّ عزيز * الذين إن مَكّنّاهم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتَوا الزكاةَ وأمَروا بالمعروفِ ونَهوا عن المنكر ، ولله عاقبةُ الأمور)

الحج : ٣٩ — ٤١

(فليُقاتِلْ في سبيلِ اللهِ الذين يَشرُون الحياةَ الدنيا بالآخرة ، ومن يُقاتِلْ في سبيلِ اللهِ فيُقتَلْ أو يَغلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيما * وما لكم لا تقاتلون في سبيلِ اللهِ والمستضعفين من الرجالِ والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجْنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلُها واجعلْ لنا من لَدُنْكَ وليّاً واجعلْ لنا من لَدُنْكَ نصيراً ، الذين آمنوا يُقاتِلون في سبيلِ اللهِ ، والذين كفروا يقاتلون في سبيلِ الطاغوتِ فقاتِلوا أولياءَ الشيطانِ إن كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً)

النساء : ٧٤ — ٧٦

* * *

ويوضِّح القرآن لأمته منهج سلوكها في الحرب والسلم : رفض للبغي والعدوان ، وجهاد بالنفس والمال ضد المعتدين ، لا يحل لمؤمن أن يتخلف عنه . كما لا يحل إقرارُ السلم ما بقي عدوان ، بل الثبات حتى النصر ، واللهُ مع المؤمنين الصابرين على تكاليف الجهاد :

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا اللهَ كثيرا لعلكم تفلحون * وأطيعوا اللهَ ورسولَه ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم ، واصبروا إن اللهَ مع الصابرين * ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارِهم بطراً ورئاءَ الناسِ ويصُدُّون عن سبيلِ اللهِ ، واللهُ من ورائهم محيط)

الأنفال : ٤٥ — ٤٧

(فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأعْلَون واللهُ معكم ، ولن يَتِرَكم أعمالَكم)

محمد : ٢٥

والتعبئة والاحتشاد للحرب الدفاعية تكليف شرعي ، لئلا يطمع عدو أو يجترىء خائن .

إنما يُقبل السلم إذا جنح العدو للسلم ، لا تُتَّهم فيه النوايا ، اللهُ أعلمُ بها :

(وإما تخافَنَّ من قوم خيانة فانبذْ إليهم على سواء ، إن اللهَ لا يُحب الخائنين * ولا يحسبَنَّ الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يُعجِزون * وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيْلِ تُرهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم وآخرين مِنْ دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمُهم ، وما تُنفقوا من شيءٍ في سبيلِ اللهِ يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون * وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على اللهِ ، إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك اللهُ ، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين * وألّف بين قلوبهم ، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بين قلوبِهم ، ولكن اللهَ ألّف بينهم ، إنه عزيزٌ حكيم »

الأنفال : ٥٨ — ٦٢

ولا يُقر الإسلام قتالَ الذين بيننا وبينهم ميثاق ، والمحايدين المسالمين من قوم العدو أثناء الحرب معه . ويُقبل السلام لا يؤخذ فيه بالظنة واتهام النوايا :

(إلا الذين يَصِلُون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ ، أو جاءوكم حَصِرتْ صدورُهم أن يقاتلوكم أو يقاتِلوا قومَهم ، ولو شاء اللهُ لَسلّطهم عليكم فلَقاتَلوكم ، وإن اعتزلوكم فلم يُقاتِلوكم وألقَوا إليكم السَّلَمَ فما جعل اللهُ لكم عليهم سبيلا * ستجدون آخرين يُريدون أن يَأمنوكم ويَأمنوا قومَهم كلما رُدُّوا إلى الفتنة أُرْكِسوا فيهــا ، فإن لم يعتزلوكم ويُلقوا إليكم السلَمَ ويَكُفُّوا أيديَهم فخُذوهم واقتلوهم حيث ثَقِفتموهم ، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا)

النساء : ٩٠ — ٩١

(يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيلِ اللهِ فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقــى إليكم السلامَ لستَ مؤمناً تبتغون عرَض الحياةِ الدنيا فعند اللهِ مغانمُ كثيرة ، كذلك كنتم منْ قبلُ فمَنَّ اللهُ عليكم فتبيّنوا ، إن الله كان بما تعملون خبيرا)

النساء : ٩٤

والنص في الآية على الكفِّ عن قتال (الذين يَصِلون إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق) صريح في احترام مواثيق الهدنة والسلام ، لا يحل شرعاً أن تُهتك ما دام العهد قائماً ، ولو كان مع المشركين الكفار . وهو أيضاً صريح النص في آية (التوبة) :

(وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناسِ يومَ الحجِّ الأكبر أن اللهَ بريءٌ من المشركين ورسوله فإن تُبتُم فهو خيرٌ لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ مُعجزي اللهِ ، وبَشِّر الذين كفروا بعذابٍ أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يُظاهروا عليكم أحداً فأتِموا إليهم عهدَهم إلى مُدَّتِهم ، إن اللهَ يُحِبُّ المتقين)

٣ : ٤

* * *

والمسلمون بعضهم أولياء بعض : إذا انتصر بعضُهم من فتنةٍ في الدين وجبت على الجماعة النصرةُ ، إلا على قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق :

(وإن استنصروكم في الدينِ فعليكم النصرُ إلا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ ، واللهُ بما تعملون بصير * والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعض ، إلا تفعلوه تكنْ فِتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير)

الأنفال : ٧١ — ٧٢

ويجيرُ على المسلمين أدناهم ، فتلتزم الجماعةُ بهذه الإجارة ، ولو كان المجارُ كافراً مشركاً .

* * *

وقبل أن تسمع الدنيا بالتعايش السلمي ، بقرون أربعة عشر ، قررت شريعة الإسلام المبدأ العام لهذا التعايش السلمي ، مع التفرقة بينه وبين مسالمة البغي والعدوان ، وموالاةِ الأعداء ومَن يظاهرونهم على الشر :

« لا يَنهاكم اللهُ عن الذين لم يُقاتلوكم في الدينِ ولم يُخرجوكم من ديارِكم أن تَبرّوهم وتُقسِطوا إليهم إن اللهَ يُحِبُّ المقسِطين * إنما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم في الدينِ وأخرجوكم من ديارِكم وظَاهَروا على إخراجِكم أن تَوَلَّوْهم ، ومن يَتولَّهم فأولئك هم الظالمون »
الممتحنة : ٨ — ٩

* * *

في عام الهجرة ، أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم اليهودَ عهده الموثق المكتوب ، بالأمان على أموالهم وأنفسِهم وعبادتِهم .

« لليهودِ دينُهم وللمسلمين دينهم »

« وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ...

« وإن الجار كالنفسِ ، غيرَ مُضارٍ ولا آثِم ..

« وإن بينهم النصرَ على من دَهَمَ يثربَ ، وإذا دُعوا إلى صُلحٍ يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دَعوا إلى مثلِ ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا مَن حارب في الدين .

« وإن البرَّ دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسِه . وإن اللهَ على أصدَقِ ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه . وإنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالم وآثم . وإنه مَن خرج فهو آمِن ، ومَن قعدَ آمِنٌ بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثِم .

وإن اللهَ جارٌ لمن بَرَّ واتقى ، ومحمد رسولُ الله صلى الله عميه وسلم»[1] .

وكان اليهود هم الذين ظلموا وأثِموا ، وغدروا وخانوا . وعبأوا

(١) اقرأ نص الكتاب ، في (السيرة النبوية لابن هشام) الجزء الثاني ، وتاريخ الطبري ، أحداث عام الهجرة .

أسلحتهم الخبيثة للكيد للاسلام في ظل عهد الموادعة والأمان ، وظاهروا الوثنية القرشية على دين التوحيد ، وتواطئوا مع أحزاب المشركين على دَهم يثرب. فحق للمسلمين – بمقتضى نص العهد – أن يؤمِّنوا وجودَهم من ذلك الشر الوبيل ، ويطهروا ديارهم من أعداء البشر .

وفي « صلح الحديبية » بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشركي قريش تم الاتفاق على شروط الهدنة ، مع سهيل بن عمرو ، ممثل مشركي قريش ، وتنص على أنهما : « اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشرَ سنين . يأمَن فيهن الناسُ ويكف بعضهم عن بعض . على أنه مَن أتى محمداً من قريش بغير إذنِ وليِّه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ..

« وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدِهم دخل فيه »

فحدث أثناء كتابة العهد ، « أن جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو ، يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال للمصطفى عليه الصلاة والسلام : يا محمد ، قد لجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا .

قال : صدقتَ .

فجعل يجر سهيل ابنه ليرده إلى قريش ، وهو يصرخ بأعلى صوته مستنصراً : يا معشر المسلمين . أأُرَدُّ إلى المشركين يَفتنوني في ديني؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا أبا جندل ، اصبِر واحتسِبْ ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك عهدَ الله ، وإنا لا نغدر بهم» [1] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٣٣٢ ط الحلبي .

ولما قدم رسول الله المدينة – راجعاً من الحديبية – أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد ، وكان ممن حُبِس بمكة . فكتب فيه أزهر بن عوف الزهري ، والأخنس ابن شريف الثقفي . وبعثا الكتابَ مع رجلين من مكة ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال :

« يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علمتَ . ولا يصلح في ديننا الغدرُ . وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك »

قال : يا رسول الله ، أتردُّني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟

وردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أبا بصير انطلق ، فإن اللهَ سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً » .

ثم كانت قريش هي التي نقضت العهد ، وظاهرت حليفتَها بَكراً على خزاعة التي اختارت الدخول في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده ، فبيَّتتْ بكرٌ خزاعة ، وأخذتْها على غرة ، وأمعنت فيها تقتيلاً بسلاح قريش !

ولمدى سنتين ، بعد صلح الحديبية ، ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيل صبره على قريش عسى أن ترجع عن غيِّها ونقضها العهد ، فلما أبَتْ إلا البغي خرج صلى الله عليه وسلم إلى مكة في جنده من المهاجرين والأنصار ، فكان الفتح .

وسأل المصطفى أهلَ مكة ، بعد نحو عشرين سنة من الاضطهاد والأذى والحرب :

« ما تظنون أني فاعلٌ بكم »

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

فقال عليه الصلاة والسلام :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » [1]

وكذلك منّ المصطفى صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق ، وعلى هوازن ، بعد النصر .

وقد أجارتْ ابنته الكبرى « السيدة زينب بنت محمد » ابنَ خالتها أبا العاص بن الربيع — وكان زوجها ثم فرّق بينهما الإسلام ، إذ بقي أبو العاص على دين آبائه — فأجارَ المصطفى والمسلمون مَن أجارت زينب ، عليها السلام .

ويوم الفتح ، أجارت أم هانىء بنت أبي طالب ، رجلين من مشركي بني مخزوم آل زوجها — فأصرّ أخوها « علي بن أبي طالب » على قتلهما فأغلقت عليهما أم هانىء باب بيتها ، وانطلقت إلى ابن عمها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرتهُ خبر الرجلين ، وخبر أخيها علي بن أبي طالب .

فقال عليه الصلاة والسلام :

« قد أجَرنا مَن أجرتِ يا أم هانىء وأمّنا من أمّنتِ ، فلا يقتلْهما »

وأسلمت « أم حكيم بنت الحارث بن هشام » وفرّ زوجها عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن ، وكان من النفر الذين صدر الأمر بقتلهم . فاستأمنت له أم حكيم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمّنه . وخرجت في طلبه إلى اليمن ، حتى عادت به إلى مكة فأسلم [1] .

* * *

ونصّ عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران ، على احترام دور عبادتهم .

وأوصى صاحبه « معاذ بن جبل » عند خروجه إلى اليمن، بأن « لا يُزعج يهوديٌّ في يهوديته »

---

(١) السيرة لابن هشام : ٣/٣٣٧ .

هل كانت هذه المبادىء العليا في التسامح واحترام عقائد الآخرين ، وحسن الجوار ، مما خذله الواقع في التطبيق العملي ، بعد عصر المبعث ؟

يشهد الواقع التاريخي للفتوح الإسلامية :

« أن القوة لم تكن قط عاملاً في انتشار الإسلام . فقد ترك العرب ، المسلمون ، المغلوبين أحراراً في أديانهم . فإذا حدث أن اعتنق بعض الشعوب النصرانية الإسلام،فذلك لما رأوه من عدل المسلمين الغالبين،مما لم يروا مثله من قبل ... والتاريخ أثبت أن الأديان لا تُفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عربَ الأندلس ، فضل هؤلاء القتلَ والطردَ عن آخرِهم ، على ترك الإسلام . ولم ينتشر الإسلام بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدها . وبالدعوةوحدها اعتنقت الإسلام الشعوبُ التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول . وبلغ من انتشار الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ، أن زاد عدد المسلمين فيها على خمسين مليون نفس . ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً ، مع أن الانكليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر ، يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها،على غير جدوى » .

الشهادة سجلها المؤرخ الفرنسي العلامة « جوستاف لوبون » في كتاب (حضارة العرب) الذي نشره سنة ١٨٨٤ م ، عن دراسة عميقة جادة ، لواقع التاريخ ، وقال :

« ذكرنا آنفاً أن مسامحة محمد — صلى الله عليه وسلم — كانت عظيمة إلى

الغاية ، مما لم يقل بمثله مؤسسو الأديان قبله ، كاليهودية والنصرانية على الخصوص . وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته . وقد اعترف بذلك التسامح علماء أوروبة المنصفون القليلون الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب – الإسلام – والعبارات الآتية التي اقتطفها من كتب كثير منهم ، تثبت أن رأينا ليس خاصاً بنا :

« قال « روبرتسون » في كتابه (تاريخ شارلكان) : « إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى . فهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحرار في التمسك بعقائدهم الدينية »

« وقال « ميشود » في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : « إن الإسلام الذي أمر بالجهاد ، متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى . فقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب . وحرّم محمد – صلى الله عليه وسلم – قتل الرهبان على الخصوص ، لعكوفهم على العبادات . ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين وحرّقوا اليهود بلا رحمة ، وقتما دخلوها .

وقال الراهب « ميشو » في كتابه (رحلة دينية إلى الشرق) : ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة » [1] .

* * *

وماذا يقول غير المنصفين من أعداء الإسلام ؟

لقد بلغ من قوة هذا الواقع التاريخي ، أن فرض الإقرار به على اليهودي

---

(١) حضارة العرب ، ص ١٦٢ من الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر : ط ٢ .

المجري «جولد تسيهر» المعروف بحقده الأسود وتعصبه الأعمى، فكتب شهادته[1] :

« مما لا يمكن إنكاره، أن الأوامر القديمة التي وُضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم، كانت قائمة على روح التسامح وعدم التعصب ..

« لم يكن العرب في العصور الإسلامية متعصبين ، بل ائتلفوا مع المسيحيين وكادوا يتآخون معهم . ولما اعتنق هؤلاء الإسلام ، حدث عقب ذلك مباشرة أن أدخلوا في الديانة الجديدة هذا التعصب الأعمى الذي نـاهضوا به مذهب بيزنطة ، مما ساعد من قبل على اضمحلال المسيحية الشرقية — انظر : الدراسة التاريخية للاسلام ، ليون كايتاني ، برلين ١٩٠٨ .

« وإن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحاً دينياً في علاقات الحكومات الإسلامية — ونجد ظواهر هذا التشريع في الإسلام ، في كتب الرحّالة في القرن الثامن عشر — يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، الأول الهجري ، من مبادىء الحرية الدينية التي مُنحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية . وروحُ التسامح في الإسلام قديماً ، تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضاً ، كان لها أصلها في القرآن : « لا إكراه في الدين » — انظر تطبيق عمر بن الخطاب لهذا المبدأ في ابن سعد ٦ / ١١٠ —

« ولا يُنسَبُ إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه حمَلَ أحداً على اعتناق الإسلام . وقد اعتُمِد على هذه الآية في بعض الوقائع في العصور المتأخرة لردِّ العقوبة الصارمة عن بعض هؤلاء الذين كانوا أُكرهوا على الإسلام ثم عادوا إلى الكفر[2] .

---

(١) في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) ص ٣٧ وما بعدها من الترجمة العربية ، ط الكاتب المصري ١٩٤٦ — مع حواشيه عليها .

(٢) يتكلم هنا عمن « أُكرهوا على الإسلام » بصيغة الجمع ، مما يوهم شبه تعميم . ولم يذكر منهم في حواشيه غير اليهودي الأندلسي « موسى بن ميمون » والثابت تاريخياً أنه لم يكره على الإسلام ، بل كان هو الذي تعوذ به « وتظاهر بالدخول فيه نفاقاً يكيد له » كما فعل بعض أسلافه في عصر المبعث . ثم لما خرج من الأندلس إلى مصر عاد إلى يهوديته وادعى أنه كان مكرهاً على الإسلام ، ليتقي عقوبة الردة .

« وفي هذه الدائرة العالية ، كانت أيضا عهودُ الصلح التي أعطيت للنصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التي اندمجت في الإسلام . وبموجبها كانوا ، في مقابل دفع الجزية، يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية من غير إزعاج لهم ...

« وكما أن مبدأ التسامح كان جارياً في الأعمال الدينية ، كان كذلك يُراعى فقهياً فيما يتعلق بالمعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الكتاب ، عَدَا الرعاية والتساهل : فظلمُ أهلِ الذمة ، وهم المحتمون بحمى الإسلام ، كان يُحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة . — تاريخ الطبري ١ / ٢٩٢٢ — لقد نهى عمرُ عن إرهاق الأهالي الخاضعين للخراج ، وأنكر إثقال عاتقهم . ورُوي عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « من آذى ذِمِّياً فأنا خصمهُ . ومَن كنت خصمَه خصمتُه يومَ القيامة » — تاريخ اليعقوبي ، ط هوتسما ٢ / ١٦٨ » .



ويرقى الإسلام بالذاتية الاجتماعية إلى أفقها الإنساني الرحب ، لا تربط أحدَنا بقومه وأمته وأهل ذمتهم فحسب ، بل تندمج ذواتنا في المجتمع البشري العام ، فيكون قتلُ فرد واحد منه ، في غير قصاصٍ عادل أو فسادٍ في الأرض كأنه قتلُ الناس جميعاً ، كما يكون إحياء نفسٍ واحدة ، كأنه إحياءٌ للناس جميعاً :

(أنه مَن قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قَتَلَ النــاسَ جميعا ، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا)

المائدة : ٣٠

والفساد في الأرض ، بعامة ، إثم كبير يمحقه القرآن ويشتد في النهي عنه والتحذير من شره ، ويضع أمام الأجيال من البشرية ، العبرةَ بمصاير المجرمين من قرون خلَت ، أفسدوا في الأرض فهلكوا وأهلكوا :

(ومن الناسِ من يُعجِبُك قوله في الحياةِ الدنيا ويُشهِد اللهَ على ما في قلبه وهو ألَدُّ الخصام ‌* وإذا تولَّى سعَى في الأرضِ ليفسدَ فيها ويُهلِكَ الحرثَ والنسلَ ، واللهُ لا يحب الفساد * وإذا قيــل له اتقِ اللهَ أخذَته العزةُ بالإثم فحسبُه جهنمُ ، ولَبِئْسَ المهادُ)

البقرة : ٢٠٥

(ألم ترَ كيف فعلَ ربُّك بعادٍ * إرمَ ذاتِ العِماد * التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلاد * وثمودَ الذين جابوا الصخرَ بالوادِ * وفرعونَ ذي الأوتادِ *

الذين طَغَوْا في البلاد * فأكثروا فيها الفسادَ * فصَبَّ عليهم ربُّك سَوْط عذاب * إن ربَّك لبالمرصاد)

الفجر : ٦ ـ ١٤

(فلولا كان من القرونِ من قبلكم أولُو بقيةٍ يَنهَوْنَ عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، واتَّبع الذين ظلموا ما أُتْرِفوا فيه وكانوا مجرمين * وما كان ربُّك ليُهلكَ القرى بظلمٍ وأهلُها مصلحون)

هود : ١١٦ ـ ١١٧

* * *

ويستشرف القرآن بالإنسانية المتدينة إلى أفق عالٍ من الوحدة الجامعة ، ما أظن البشرية قادرة على السمو إليه ، فوق فوارقِ العَقائد والمِلل ، وأحقاد التعصب المذهبي الذي يُلهبه الصراع (الأيديولوجي) في عصرٍ يدَّعون أنه عصر حقوق الإنسان .

ومن قبل أربعة عشر قرناً ، تلقت البشرية من آياتِ الرسالة الخاتمة للدِّين :

(آمَنَ الرسولُ بما أُنزل إليه من ربِّه والمؤمنون ، كلٌّ آمن باللهِ وملائكته وكتُبه ورُسُله لا نفرق بين أحدٍ من رُسُله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَك ربَّنا وإليك المصيرُ)

البقرة : ٢٥٨

(قلْ يا أهلُ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ نَعبدُ إلا اللهَ ولا نُشرِكَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ ، فإن تولوَّا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

آل عمران : ٦٤

(ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم ،

وقولوا آمَنّا بالذي أُنزِلَ إلينا وأُنزل إليكم وإلهُنا وإلهُكم واحِدٌ ونحنُ له مسلمون)

العنكبوت : ٤٦

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَن آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعمِلَ صالحاً فلهم أجرُهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون)

البقرة : ٦٢

(يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتَعارَفوا ؛ إن أكرمَكم عند اللهِ أتقاكم ، إن اللهَ عليم خبير)

الحجرات : ١٣

وقال عليه الصلاة والسلام :

(أنا أوْلى الناسِ بعيسى بن مريم : الأنبياء إخوة من عَلاّت ، امهاتَهم شتى ودينُهم واحد ، وليس بيني وبين عيسى نبي)

(صحيح مسم)

* * *

وقد يُجمل القولَ في الذاتية الإنسانية للشخصية الإسلامية ، أن كلَّ عمل ينفع الناسَ ، بعامة ، يتقبله الله ويزكيه ويبقيه . وأي عمل يضر الناسَ زبَدٌ يذهب جُفاءً . وكل كلمة يقولها قائل ، يباركها اللهُ أو يمحقها بمقدار ما تؤتى من خير أو شر :

(إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ والعَملُ الصالحُ يرفعُه ، والذين يمكرون السيئاتِ لهم عذابٌ شديد ومكرُ أولئك هو يبور)

فاطر : ١٠

(ألم ترَ كيف ضرب اللهُ مثَلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة أصلُها ثابت وفرعُها في السماء تؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها . ويضرب اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكرون . ومثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشَجرةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ من فوقِ الأرضِ ما لها من قرار)

أبراهيم : ٢٤ — ٢٥

(فأما الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاءً ، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكث في الأرض ، كذلك يَضربُ اللهُ الأمثالَ)

الرعد : ١٩

* * *

في (الموطأ والصحيحين) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

(إذا احببتُم أن تعلموا ما للعبدِ عند ربّه ، فانظروا ماذا يتبعه من حسن الثناء)

« إن من شرِّ الناس مَن اتقاه الناسُ لِشَرِّه »

« بينا رجلٌ يمشي بطريق إذ وجدَ غُصْنَ شوكٍ على الطريق فأخَّره ، فشكر اللهُ له وغفر له » .

من هذه الذاتية الاجتماعية للشخصية الإسلامية ، تأخذ القدوةُ حُرْمتَها ومسئوليتها في الإسلام ، ويتقرر جزاؤها مضاعَفاً ، من ثواب أو عقاب ، بما يحملُ الذي في مركز القدوة ، مِن تبعة مَن يقتدون به .

ويبدأ كتاب الإسلام بتقرير هذا المبدأ ، في أعلى مراكز القيادة : الرسول عليه الصلاة والسلام .

(ولولا أنْ ثبّتْناك لقد كِدتَ ترْكنُ إليهم شيئاً قليلا * إذاً لأذقناكَ ضِعفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ ثم لا تجد لك علينا نصيراً)

الإسراء : ٧٤ — ٧٥

وهي تبعة تكافيء ما للرسول على أمته من طاعة واجبة ، فهو مُبلغها رسالة الله ، وهو هاديها ومعلمها ، به تقتدي وبسُنته تهتدي :

(وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتّقوا اللهَ ، إن اللهَ شديدُ العقاب)

الحشر : ٧

(وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخيرَةُ من أمرِهم ، ومن يعصِ الله ورسولَه فقد ضلّ ضلالا مبينا)
الأحزاب : ٣٦

* * *

ويؤخذ قادة الكفار يومَ الحساب بإثمِهم وإثم مَن اتبعوهم ، ضلالاً وإضلالا .

(لِيَحملوا أوزارَهم يومَ القيامة ومِن أوزارِ الذين يُضِلُّونهم بغيرِ علمٍ ، ألا ساء ما يَزِرُون)

النحل : ٢٥

دون أن يُعفَى مَن ضلوا بهم من التبعة . بل إن هؤلاء الضالين لن يلبثوا أن يُضلوا غيرهم ، فيحملوا الوزر مضاعَفاً ، ما تتابع ميراثُ الضلال من خلف إلى سلف :

(هذا فوجٌ مقتحِمٌ معكم لا مرحباً بهم ، إنهم صالُو النارِ * قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدّمتموه لنا فبئس القرارُ * قالوا ربّنا من قدّم لنا هذا فزِدْه عذاباً ضِعفاً من النار)

ص : ٥٩ — ٦١

(كُلّما دخلتْ أمةٌ لَعَنَتْ أختَها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاءِ اضَلُّونا فأتِهم عذاباً ضِعفاً من النارِ قال لكلٍّ ضِعفٌ ولكنْ لا تعلمون)

الأعراف : ٣٨

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما مِن داعٍ يدعو إلى هُدًى إلاّ كان له مثلُ أجرِ مَن اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورِهم شيئاً . وما من داعٍ يدعو إلى ضلالة إلا كان عليه مثلُ أوزارهم ، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً »
(الموطأ ، وصحيح مسلم)

وفي كتابه ، صلى الله عليه وسلم ، إلى المقوقس عظيم القبط :

« .. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتِك اللهُ أجرَك مرتين . فإن تولّيتَ فإنما عليك إثمُ القبط : (يا أهلَ الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا اللهَ ولا نُشرِك به شيئا ولا يتخـذ

بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)
وبمثل هذا كتب ، صلى الله عليه وسلم ، إلى هرقل عظيم الروم [1] .

* * *

وأولو الأمر من المسلمين ، في مركز القدوة ، يحملون أمانة السهر على مصالح الأمة ، ولهم عليها حق الطاعة والنصيحة ، ضبطاً لنظام الجماعة وحماية لوحدتها :

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولى الأمرِ منكم ، فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى اللهِ والرسولِ إن كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخرِ ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا)

النساء : ٥٩

ومبدأ الشورى أصيل في الإسلام ، يصغي فيه ولي الأمر إلى مشورة أصحاب الرأي ، على أن يحتمل تبعة إصدار القرار فيما يشاورهم فيه .

وإذا أخطأ ولي الأمر كانت النصيحة له واجبة ، فأما إذا خرج على حكم الشرع ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

في (كتاب الإمارة) من صحيح مسلم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَن أطاعني فقد أطاع اللهَ ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني »

« على المرء المسلم السمعُ والطاعة ، فيما أحبَّ وكرِه . إلا أن يؤمرَ بمعصية فلا سمعَ ولا طاعة »

« لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف »

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٨٧/٣ ط الحسينية بالقاهرة .

« اللهم مَن وَلِيَ من أمر أمتي شيئا فشقّ عليهم فاشقُق عليه ، ومَن وليَ من أمر أمتي شيئا فرفَق بهم فارفقْ به »

« لكل غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة يُرفع له بقدرِ غدرِه ، ألا ولا غادرَ أعظمُ غدراً من أميرِ عامةٍ »

ولما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة، خطب الناسَ فقال بعد أن حمد اللهَ وأثنى عليه :

« أيها الناس . إني وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيرِكم ، ألا أطيعوني ما أطعتُ اللهَ فيكم ، فإن عصيتُ فلا طاعة لي عليكم . ألا وإن أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذَ الحق له ،وأضعفكم عندي القويُّ حتى آخذ الحقّ منه ..»

❋ ❋ ❋

والقضاءُ ولايةٌ يكفي لبيان خطرها أن نذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه . فمَن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذْه ، فإنما أقطع له به قطعة من نار »

« لو يُعطى الناسُ بدعواهم لادَّعى ناسٌ دماءَ رجالٍ وأموالَهم ، ولكن اليمين على المدَّعى عليه »

« لا يحكمْ أحدكم بين اثنين وهو غضبان »

« ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذي تأتي شهادتُه قبل أن يُسألَها »

من هَدْي الكتاب والسنة ، كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري (رسالةَ القضاء) التي أجملَ فيهامِنهاج القضاء في الشريعة الإسلامية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

«من عبدِ الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس، سلامٌ عليك .

« أما بعدُ فإن القضاء فريضةٌ محكَمة وسُنة متَّبَعة ، فافهم إذا أُدْلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلمُ بحقٍّ لا نفاذ له .

« آسِ بين الناس في وجهِك وعدلك ومجلسِك ، حتى لا يطمعَ شريفٌ في حيفِك ولا ييأس ضعيفٌ من عدلِك .

« البينةُ على مَن أدَّعى واليمينُ على مَن أنكر . والصلحُ جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالا .

« لا يمنعنّك قضاءٌ قضيتَه اليومَ فراجعتَ فيه عقلَك وهُدِيتَ فيه لرشدِك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحقَّ قديم ، ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل .

« الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرفْ الأشباهَ والأمثالَ فقِس الأمورَ عند ذلك واعمدْ إلى أقربِها إلى اللهِ وأشبهِها بالحق .

« واجعلْ لمن ادّعى حقّاً غائباً أو بيِّنةً أمداً ينتهي إليه . فإن أحضر بيِّنته أخذتَ له بحقِّه ، وإلا استحللتَ عليه القضيةَ فإنه أنفى للشكِّ وأجلى للعَمَى .

« المسلمون عدول بعضُهم على بعضٍ إلا مجلوداً في حَدٍّ ، أو مجرَّباً عليه شهادةُ زورٍ ، أو ظنيناً في ولاءٍ ونسب . فإن اللهَ تولى منكم السرائرَ ودرأ بالبيِّنات والأيمان .

« وإياك والغَلَق والضجر والتأذيَ بالخصوم والتنكرَ عند الخصومات ، فإن الحق في مواطنِ الحقّ يُعظِم اللهُ به الأجرَ ويُحسِن الذخرْ ، فمن صحّتْ نيتُه وأقبَلَ على نفسِه كفاه اللهُ ما بينه وبين الناس . ومَن تخلّق للناس بما يعلمُ اللهُ أنه ليس من نفسه ، شانَه اللهُ . فما ظنُّك بثوابٍ عند الله عزَّ وجلَّ في عاجلِ رزقِه وخزائنِ رحمته ؟ والسلام »

* * *

وأمانة العلم صحبة ، يحملها « ورثةُ الأنبياء» ويُنظَر فيها إلى خطر موضعهم في الأمة : قدوه وإمامة . وفيهم قال المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« صنفان من أمتي إذا صلحا صلحَتْ وإذا فسدا فَسَدتْ: السلطان والعلماء»

وعن الإمام مالك : « بلغني أن العلماء يُسألون يومَ القيامة عما يُسألُ عنه الأنبياء »

ومن عصر مبكر ، عرفت المدرسة الإسلامية الأولى — في الروضة الشريفة بالحرم المدني — مَن تصح لهم صفةُ العلماء ، ومَن لا يجوز أن يؤخذ عنهم العلم ، لآفةٍ في خلقهم ، أو خلل في ضبطهم ، وعدم رسوخهم في العلم .

يرجعون فيهم إلى الآيات المحكمات :

(نرفعُ درجاتٍ مَن نشاء وفوق كلِّ ذي علم عليم)

يوسف : ٧٦

(فأسْألوا أهلَ الذِّكْرِ إن كنتم لا تعلمون)

النحل : ٤٣

(ولا تَقْفُ ما ليس لك به عِلْمٌ ، إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولا)

لقمان : ٦

(وإن كثيراً ليُضِلُّون بأهوائهم بغيرِ عِلْم، إن ربَّك هو أعلمُ بالمعتدين)
الأنعام : ١١٩

(ومِن الناسِ مَن يُجادل في اللهِ بِغَيرِ علمٍ ولا هُدىً ولا كتابٍ منير * ثانيَ عِطْفِه ليُضِلَّ عن سبيلِ اللهِ ، له في الدنيا خِزْيٌ ونذيقه يوم القيامة عذابَ الحريق)

الحج : ٨ — ٩

(وما به من علمٍ إنْ يَتَّبعون إلا الظنَّ وإن الظنَّ لا يُغني من الحقِّ

شيئاً • فأعْرِضْ عَمّنْ تولى عن ذكرِنا ولم يُرِدْ إلا الحياة الدنيا)
النجم : ٢٨ — ٢٩

وفي صحيح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يزال الناسُ بخيرٍ ما أخذوا العلمَ عن أكابرهم ، فإذا أخذوه عن أصاغِرهم وشِرارِهم ، هلكوا »

« هَلاكُ أمتي : عالمٌ فاجر ، وعابد جاهل » .

لأن انتحال الفاجر صفة العالم ، كجهل العابد ، مفسدة للنـــاس ومضيَعَة للأمة . فكان يقال :

« تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والجاهل العابد ، فإنهما فتنة لكل مفتون »

وعلى هؤلاء وهؤلاء ، تقع تبعة ضلالهم ومَن يَضِلُّ بهم من الناس ، شأن سائر الذين في موضع القدوة ومركز القيادة والإمامة :

« ليَحملوا أوزارَهم يومَ القيامة ومن أوزار الذين يُضِلّونهم بغير علم ، ألا ساء ما يَزِرون »
النحل : ٢٥

* * *

ونقل « ابنُ عبد البر » في كتاب (جامع بيان العلم) عن فضيل بن عياض ، وأسد بن الفرات ، قالا :

« بلَغنا أن الفَسَقَة من العلماءِ ومن حملةِ القرآن ، يُبدأ بهم يومَ القيامةِ قبلَ عبَدةِ الأوثانِ »

وعلى أساس النظر في خلقية العالم ورسوخه في العلم ، قال الإمام مالك :

« لا يؤخذ العلم من أربعة :

لا يؤخذ من سفيه ، ولا من صاحب هوىً يدعو الناس إلى هواه ، ولا يؤخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يُتّهم على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يؤخذ من شيخ له فضل وعبادة ، إذا كان لا يعرف ما يُحدِّث .

« كم من أخ لي بالمدينة ، أرجو دعوته ولا أقبل شهادته !

« لقد أدركتُ بالمدينة أقوام لو استُسقِيَ بهم المطرُ لسُقوا ، وقد سمعوا من العلم والحديثِ شيئاً كثيراً وما أخذتُ عن واحدٍ منهم ، وذلك أنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوفَ الله والزهدَ ، وهذا الشأن يحتاج إلى رجل معه تقى وورعٌ وصيانة وإتقان ، فأما زهد بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به ، وليس هو بحجة ، ولا يُحمل عنهم العلم » .

* * *

وإذا كانوا قد منعوا أخذ العلم من تقي ورع ، لكونه غير ذي دراية وإتقان وضبط ، فكيف بمتهم في أمانته مُجَرَّح في خلقه ؟ على مثله يهون الدجل والزيف ، وتسيطر عليه النفعية والوصولية ، فالغاية عنده تبرر كل الذرائع .

وقاعدتهم المشهورة في اشتراط أن يكون راوي الحديث عدلاً ضابطاً ، تشددت المدرسة الإسلامية في تطبيقها على العلماء :

العدالة أمانة ونزاهة وعفة ، وترفع عن الدنايا والصغائر .

والضبط فقه ودراية وإتقان ، ودقة ويقظة .

والعلم في الإسلام عبادة وجهاد. يمنح العالم أريحيةً لا تعادلها لذاتُ الدنيا مجتمعة ، فليس حريصاً على شيء منها. ومن مأثور مبادئهم التي يؤخذ بها طلابُ العلم :

« إنك لن تفقه العلمَ حتى لا تبالي في يدَيْ مَن تكون الدنيا » .

« أشرف العلماء من هرب بدينِه عن الدنيا ، واستصعَبَ على الهوى » .

« إذا رأيتم العالِمُ محباً لدنياه ، فاتهموه على دينكم » .

« لو أن حمَلة العلمِ أخذوه بحقه وما ينبغي لهم ، لأحبهم اللهُ ووقّرهم الناسُ ، ولو طلبوا به الدنيا أبغضهم اللهُ وهانوا على الناس » .

« الفقهاء يستغنون عن أهل الدنيا ، فإذا بذلوا العلم رغبة فيها ورأى أهلُ

الدنيا موضع العلم عند أهله ، زهدوا فيه وازدادوا رغبةً في دنياهم » .

* * *

والعالم عندهم لا يكون تقياً أميناً ، إذا ابتُلي بآفة العجبِ وحبِّ الظهور وطلبِ الرياسة ، أو ما يُعرف عندهم « بالشهوة الخفية » !

نظروا في ذلك إلى الآية المحكمة :

(تلك الدارُ الآخرة نجعلُها للذين لا يُريدون علُوّاً في الأرضِ ولا فساداً ، والعاقبةُ للمتقين) .

القصص : ٨٣

وسُئِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الشهوة الخفية فقال :

« الرجلُ يتعلم العلمَ يُحِبُّ أن يُجلَس إليه » .

« لا تَعلّموا العلمَ لتباهوا به العلماءَ ، ولا لتماروا به السفهاءَ ، ولا لتَحيزوا به المجالسَ ، ولكن تَعلموه لوجهِ اللهِ والدارِ الآخرة » .

وعن « الإمام علي » كرم الله وجهَه :

« إنما العالم من عمل بما علم فوافق عملُه علمَه . وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم—جمع ترقوة—يخالف عملُهم علمَهم وتخالف سريرتهم علانيتَهم ، يجلسون حلقاً فيباهي بعضُهم بعضاً حتى إن الرجل لَيغضبُ على جليسه إذا جلس إلى غيره. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل » .

واشتهرت فينا كلمةُ الإمام الشافعي : « وددتُ أن الناس انتفعوا بهذا العلم دون أن يُنسب إليَّ شيء منه » .

وكرهوا للعالم مداخلةَ السلطان الجائر ، وفي الحديث الشريف :

« يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ، فمن أنكر فقد بريء ، ومن كره فقد سَلِم ، ولكنْ مَن رضي وتابع فأبعده اللهُ » .

وشاعت قولتهم : « السلطان مَن لا يعرف السلطان » .

ولا خلاف بينهم في إنكار دخول العالم على السلطان ، طلباً لدنيا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن أناساً من أمتي سيفقهون في الدين ويقرأون القرآن ويقولون : " نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ، ونعتزلهم بديننا " . ولا يكون ذلك ، كما لا يُجتَنى من القتاد إلا الشوك ، كذلك لا يُجتَنى من قِبَلهم إلا الخطايا » .

وعن عبدالله بن مسعود :

« إن على أبواب السلاطين فِتَناً كمبارك الإبل ، والذي نفسي بيده لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله » أو قال : مِثْلَيْه

وإنما كان الخلاف فيمن يدخل على السلطان الجائر ، لأداء حقّ النصيحة والقيام بتكليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : منهم من رأى أن يتجشمه ابتلاءً وتكليفاً ، وقد سئل الإمام مالك في ذلك فردّ على سائله :

« رحمِكَ اللهُ ، وأين التكلمُ بالحق ؟ »

ومنهم من تشدد في النهي عن ذلك ، واتقوا فيه مظنةَ الفتنة ، أو النزولَ بقيمة حمَلة العلم .

قال « ابن عبد البر » :

« وقد كان كثير من السلف ينهون عن الدخول على الملوك لمن أراد أمرَهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضاً . وممن نهى عن ذلك : عمر بن عبد العزيز ، وابن المبارك ، والثوري . وقال ابن المبارك : ليس الآمر الناهي عندنا مَن دخل عليهم فأمرهم ونهاهم ، إنما الآمر الناهي مَن اعتزلهم ؛ وسبب هذا ما يُختى من فتنة الدخول عليهم ، فإن النفس قد تُخيل للإنسان إذا كان بعيداً عنهم ، أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم ، فإذا شاهدهم قريباً مالت النفس إليهم لأن محبة الشرف كامنةٌ في النفس ، ولِذلك يداهنهم ويلاطفهم ، وربما مال إليهم وأحبهم ، ولا سيما إن لاطفوه وأكرموه .

« وكتب سفيان الثوري إلى عباد بن عباد :

« إياك والأمراءَ أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء ، وإياك أن تُخدع ويقال لك : لتشفع وتدرأ عن مظلوم ، أو ترد مظلمة . فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فُجّارُ القراء سُلّماً ... وإياك وحبَّ الرياسة ، فإن الرجل يكون حبُّ الرياسة أحبَّ إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصيرُ من العلماء . فتفقّدْ بقلبٍ واعمل بنيّةٍ واعلم أنه قد دنا من الناس أمرٌ يشتهي الرجل معه أن يموت ، والسلام »[1] .

* * *

والأصلُ عندهم أن العلم يرفع من قدر أهله فوق كلِّ ذي جاه ، ولا يقبل العالم تكريماً من سلطان ، لأن كرامة العلم فوق كل تكريم .

ويتواضع العلماء مع ذلك للناس ، ويرون في أصغر تلاميذهم زملاء لهم ، في طلب العلم ، ويخلطونهم بأنفسهم وأهليهم ، فهم أبناء وأصدقاء . وأصحاب ، وتظل صفة الصحبة لأجيال التلاميذ بعد رحيل الأئمة ، فيقال : أصحاب الشافعي ، وأصحاب مالك ...

* * *

ومن الجيل الأول لتلاميذ المدرسة الإسلامية ، تقرر وجوب نيل « إجازة التخصص » من كبار العلماء ، أهل الجهة – أي الاختصاص – قبل التصدي للتدريس والفتيا ، قال الإمام مالك .

« لا أوتيَ برجلٍ غيرِ عالم بالعربية يفسر القرآنَ إلا جعلتُه نكالاً » .

« ليس كل من أحب أن يجلس للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة ، فإن رأوه لذلك أهلاً ، جلس . وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك » .

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ١/١٧٧ ط المنيرية بالقاهرة .

ويُهدر صفةَ العالم عندهم ، أن يخوض فيما لا يعلم ، أو يفتي بالظن ، أو يخطئه أن يقول « لا أدري » فيما لا يدري .

يتوارثون في ذلك ، خلفاً عن سلف ، وصيةَ الفقيه ابن هرمز لتلميذه « مالك بن أنس » :

« ينبغي أن يورِّث العالِمُ جلساءه قول : "لا أدري" فإن العالم إذا أخطأ " لا أدري " أُصِيبتْ مقاتِلهُ » .

وما من عالم من أئمة السلف ، تحرج من قول : لا أدري ، والله أعلم .

إنما كان التحرج كله من أمانة العلم الصعبة ، فيما يُسألون فيه .

قال « البراء » التابعي :

« أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُسأل أحدُهم عن المسألة ، ما منهم من رجلٍ إلا ودَّ أن أخاه كفاه » .

ومثله ما يُروَى عن الإمام سفيان الثوري ، شيخ الإمام مالك :

« أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا ، حتى لا يجدوا بدا من أن يُفتوا . وإذا أُعفوا منها كان أحبَّ إليهم » .

وأشد ما كانوا يتحرجون منه ، الفتيا بحلال أو حرام فيما لم يأت فيه نص من الكتاب والسنة . وأعود فأذكر هنا ما نقلُ القاضي عياض » في (ترتيب المدارك) و « ابن عبد البر » في (جامع بيان العلم) من قول الإمام مالك :

« ما كان شيء أشدَّ عليَّ من أن أُسألَ في مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع في حكم الله . ولقد أدركنا أهل العلم ببلدنا — دار الهجرة — وإن أحدهم إذا سئل عن المسألة أحلال هي أم حرام ، كأن الموت أشرف عليه .

« لم يكن من أمر الناس ولا مَن مضى من سلفِنا . ولا أدركتُ أحداً اقتَدي به يقول في شيء : هذا حلال ، ولا : هذا حرام . ما كانوا يجترئون

على ذلك . وإنما كانوا يقولون : نكره هذا ؛ ونرى هذا حسناً ؛ فينبغي هذا ؛ ولا نرى هذا ، أما سمعتَ قول الله تعالى : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتُم منه حراماً وحلالا ، قلْ آللهُ إذِن لكم أم على الله تفترون) ؟ الحلالُ ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله . »

* * *

ويظل العالم ما عاش طالبَ علم :

الإمام مالك بقي إلى آخر عمره يراجع كتابه (الموطأ) ويستبعد منه ما لا يطمئن إليه . وقد مرت الإشارة إلى رسالة الإمام الشافعي ، التي كتبها لأول مرة في بغداد ثم لما ارتحل إلى مصر أعاد النظر فيها وكتبها من جديد .

وذكر « سَحنون » مدون الفقه المالكي ، أن مسألة عرضت لشيخه الإمام مالك فقال له : « اليومَ ، لي عشرون سنة وأنا أفكر في هذه المسألة » .

ولما سئل الإمام الشافعي عن الدليل الذي يستند إليه الأخذُ بالإجماع ،من القرآن الكريم ، لزم داره ثلاثة أيام انقطع فيها للتفكر والتدبر ، ثم خرج بعدها إلى الناس شاحباً مجهداً متورم العينين من كدِّ البحث والنظر ، فتلا الآية المحكمة :

(ومَن يشاقِق الرسولَ من بعدِ ما تبيّن له الهدى ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تولى ونُصْلِه جهنمَ وساءتْ مَصيراً) [1] .

النساء : ١١٥

* * *

(١) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية ١٩/٢ — ط مصر .

وتتَسع القدوة لكل مَن هو في موضع المَثلِ والمسئولية والولاية ، كالمفهوم من الحديث الشريف :

« ألا كلُّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولدِه ، وهي مسئولة عنهم ... » .

وتثقل التبعة ، بمقدار مركز القدوة . فنساء النبي ، أمهات المؤمنين ، لسن كسائر النساء ، وفيهن نزلت آيات الأحزاب :

(يا نساءَ النبيِّ مَن يأتِ منكنَّ بفاحشة مُبَيّنة يُضاعفْ لها العذابُ وكان ذلك على اللهِ يسيراً * ومَن يقنُتْ منكن للهِ ورسولهِ وتعملْ صالحاً نؤتِها أجرَها مرتين وأعتَدنا لها رزقا كريماً) .

وفي (تاريخ الطبري) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . كان إذا صعد المنبرَ فنَهى الناسَ عن شيء ، جمع أهلَه فقال :

« إني نَهيتُ الناسَ عن كذا وكذا ، وإن الناسَ ينظرون إليكم نظر الطير – إلى اللحم – فأقسم باللهِ لا أجد أحداً منكم فعَله ، إلا أضعفت عليه العقوبة » .

* * *

ويروون في حرمة القدوة وثقل أمانتها الصعبة ، حديثَ معقل بن يسار المزني ، قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما من عبدٍ يسترعيه اللهُ رعيةً يموتَ وهو غاشٌ لرعيتِه إلا حرَّم الله عليه الجنة » .

ومعه حديثُ أبي ذر الغفاري ، قال :

قلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟

فضرب بيده على منكبي وقال : « يا أبا ذر ، إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة ، إلا مَن أخذها بحقِّها وأدَّى الذي عليه فيهـــا . »

(صحيح مسلم)

والحديث يفسر موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، حين أُصيب بطعنة خنجر أبي لؤلؤة المجوسي . فسألوه رضي الله عنه أن يستخلف على الأمة من يتولى أمرها بعده ، فقال متحرجاً مشفقاً متهيِّباً .

« راغب في الخلافة فلا أحب تقديمه لرعيته ، وراهبٌ لها فأخشى عجزَه عنهـــا » .

ولما ألحوا عليه ليفعل ، ردَّهم بقوله : « أتحمَّل أمركم حيّاً وميتاً ؟ لوددتُ أن حظي منها الكفافُ : لا عليَّ ولا لي » .

حدَّث الزهري عن سالم عن أبيه عبدالله بن عمر ، قال : « دخلتُ على حفصة فقالت : أعلمتَ أن أباك غيرُ مستخلف ؟ قلتُ : ما كان ليفعل .

قالت : إنه فاعل . وحلفتْ أني أكلمه في ذلك . فسكتُّ حتى غدوت ولم أكلمه . فكنت كأنما أحمِلُ بيميني جبلاً . حتى رجعت فدخلتُ عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره . ثم قلت : إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليتُ أن أقولها لك : زعموا أنك غير مستخلف . وأنه لو كان لك راعي إبلٍ أو راعي غنم ثم جاءك وتركها ، رأيتَ أنه قد ضيَّع ، فرعايةُ الناس أشدُّ .

فوضع رأسه ساعة ثم رفعه إليّ فقال : « إن الله عز وجل يحفظ دينَه ، وإني لئن لا أستخلف فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف . وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف . »

فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله وأبا بكر ، حتى علمتُ أنه لم يكن ليعدل برسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً ، وأنه غير مستخلِف »
(صحيح مسلم)

ويذكرون لثاني العمرين «ابن عبدالعزيز» أنه اغتم بعد رحيل سلَفِه «سليمان ابن عبد الملك» فسئل في ذلك فقال : « لمثلِ ما أنا فيه فليُغتم : ليس أحدٌ من الأمة إلا وعليّ أن أوصِل إليه حقّه ، غيرَ كاتبٍ إليّ فيه ولا طالبه مني » .

وفي بيته ، قام للصلاة فما ملَك عبرته . سألتْه زوجه عما أبكاه في مصلاه فقال :

« إني تقلدتُ من أمرِ أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودَها وأحمرَها . فتفكرتُ في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمتُ أن ربي سائلي عنهم يومَ القيامة فخشيتُ ألا تثبتَ لي حجة ، فبكيتُ » .

* * *

ومعروف من المبادىء الإسلامية ، أن « الذي يطلب القضاءَ لا يُوَلاّه » شأنه شأن الولاية بعامة . يرجعون في ذلك إلى ما في صحيح الحديث من النهي عن طلب الإمارة وعدم تولية من يسألها . حدّث أبو موسى الأشعري ، قال :

« دخلتُ على النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشعريين . فسأل كلاهما العملَ ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقول يا أبا موسى ؟ قلت : والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما ، وما

شعرت أنهما يطلبان العمل . فقال : إنا والله لا نستعمل على عملنا أحداً سأله . ولكن أنت يا أبا موسى » .

وبعثه عاملاً على اليمن .

بل كرهوا للعالم كذلك ، أن يُشغَل عن العلم بعملٍ يتولاه للسلطان . ولم يشفع له عندهم أن يكون قد أُكْرِهَ على قبول ذلك العمل .

ويذكرون في ذلك ، ما رواه محمد بن داود البصري ، قال :

« لما وُلِّيَ اسماعيلُ بن علية – وكان من فقهاء عصره – على العشور ، أو : على الصدقات ، كتب إلى عبدالله بن المبارك يستمده برجالٍ من القراء يُعينونه على ذلك . فكتب إليه عبدالله :

يا جاعلَ العلم لـه بازيـاً ... يصطاد أمـوالَ المساكيـنِ
احتلتَ للدنيـا ولذَّاتهـا ... بحيلةٍ تذهب بالديـن
أين رواياتُك فيمـا مضـى ... عن ابنِ عونٍ وابن سيرينِ
ودرسُك العلـمَ بآثـاره ... وتركُكَ أبـوابَ السلاطين
تقول : أُكرِهتُ فما حيلتي ؟ ... زَلَّ حِمارُ العلمِ في الطين »[1]

* * *

وفي تاريخ الإسلام مَن عُرِض عليهم القضاءُ فأصروا على الامتناع وقاوموا فيه ضغط الإكراه ، ورضوا أن يحتملوا أقسى العقوبة ولا يَحملوا أمانة القضاء الصعبة ، ليكونوا في الناس قدوة .

وقد سئل الفقيه البغدادي « أحمد بن عمر بن سريج » مجدد الدين للمائة الثالثة – ت سنة ٣٠٦هـ – في موقفه حين عوقب على امتناعه عن القضاء بأن « يُسمَّر عليه بابُ بيته » فقال إنه إنما أراد « أن يتسامع الناسُ أن رجلاً من أصحاب الشافعي عومل على تقليد القضاء بهذه المعاملة ، وهو مُصِرٌّ على إبائه ، زهداً في الدنيا » .

---

(١) ابن عبد البر : الجامع ١/١٦٥ .

خاتمة

وبعدُ وقبلُ ،

فليس الأمر في شيء من هذه القيم والمبادىء والشمائل ، أن نرددها قولاً بغير فعل : (كبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

ولا في أن نسمعها ونلقنها غافلين عن مغزاها : فعبادُ الرحمن (إذا ذُكرِّوا بآياتِ رَبِّهم لم يَخروا عليها صُمّاً وعميانا) .

إنما هي سجية في المؤمن توجه سلوكه في نفسه ونحو خالقه والجماعة الإنسانية ، وتسيطر عليه تلقائياً لرسوخها في عقيدته وشخصيته ، لا يملك أن يحيد عنها في السرِّ أو العلن .

وهذا هو وجه المسئولية فيما يرى الناس فينا من مثال للشخصية الإسلامية ، تُحسَب للإمام أو تُحسب عليه .

وبقدر ما تتجلى فيها قيم العقيدة الإسلامية أو تتجافاها، يأخذ كلٌّ فرد منا صفة القدوة التي عرفنا حرمتَها وتبعتها .

* * *

وأعود على بدء ، فأسأل من رؤيتي للواقع التاريخي الذي شهد أمتي حققت وجودَها الحر مرتبطاً بعقيدتها وفكرها الديني ، وحملت لواء الإسلام مناراً لحضارة رائدة قائدة :

هل هذه هي الشخصية الإسلامية التي يرتاب المرتابون في قدرتها على الانسجام مع النظرة الطبيعية للكون والحياة ؟ .

وهل بمثل هذه القيم الإسلامية ، يتآكل وطننا اليومَ ويتصدع ، وتُسام شعوبُه الخسفَ والهوان ، فيطمع فيها من يشهدون صمودها للمذابح والمجازر والهزائم ؟ .

أو أن مَردّ هذا كله ، إلى الجهل بالفكر الإسلامي والانحراف عن أصيل مبادئه والعزوف عن نقيّ نبعه ؛ وما تعرضت له شخصيتنا من ذرائع مسخ وتشويه ؟

من أوائل عصر المبعث ، وعي التاريخ كلمة « جعفر بن أبي طالب » لنجاشي الحبشة حين أرسلت إليه قريش ، تطلب تسليم المهاجرين الأولين :

« أيها الملك ، كنا قوماً أهلَ جاهلية ، نعبد الأصنام ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القويّ منا الضعيف ، حتى بعث الله فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنعبده وحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الأوثان ، وأمَرنا بصدقِ الحديث وأداءِ الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء وقولِ الزورِ وأكلِ مال اليتيم وقذفِ المحصنات .... فصدّقناه وآمنّا به ، واتبعناه فعبدنا اللهَ وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعَدا علينا قومنا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ... »[1] .

وأرانا اليوم نوصَم بالرجعية ، في إيماننا بقيم عليا تعطي الإنسان قيمته ومعناه فوق حيوانيته المادية التي يستوى فيها والبَهْم الدواب ....

ويُتهم فكرنا الديني ، وكأنْ لم يكن الوازع الديني رقيباً على الإنسان في خلقه وسلوكه ، وكأنّ الأمة على المدى الطويل لم تجد من عطاء عقيدتها ما حرّرها من أغلال الشرك ووثنية المادة ومهانة العبودية للبشر ، وخلّصها من فوضى العبثية ولعنة العدَمية ، وما مزق عن بصيرتها من حُجُبِ الغفلةِ وعن عقلها

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٣٦٠ حلبي .

غشاوة الجهل والعمى ، ففتحت الدنيا وارتادت للعصر الحديث غيابةَ درب العلم ، ومجاهلَ الطريق إلى ما آفاق الفضاء .

من عجب أن تشتد الحملة على الإسلام ويُقال بتخلفه ، ناظرين إليه من وراء أربعة عشر قرناً ، ولا يُنظر إلى سائر الأديان والعقائد والمِلل قبله ، من وراء عشرين قرناً وأربعين ....

فما أحوجنا فيما فرطنا من أمرنا وما يغشانا من جاهلية ، إلى أن نتدبر آية الله تعالى فينا :

(هو الذي بعث في الأميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويُزكيهم ويُعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ ، وإنْ كانوا من قَبْلُ لَفي ضلالٍ مبين * وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) .

صدق الله العظيم

فهرست